المكتبة الثقافية

٥٢

نظرات

في أدبنا المعاصر

الدكتور زكي المحاسني



... يناير ١٩٦٢

المكتبة الثقافية
٥٢

نظرات
في أدبنا المعاصر

الدكتور زكي المحاسني

وزارة
الثقافة والإرشاد القومي
الإدارة العامة للثقافة

أول يناير ١٩٦٢

الناشر

دار القلم

١٨ شارع سوق التوفيقية بالقاهرة
ت ٥٥٠٣٢ — ٧٧٧٤١

مقدمة

الكلام على أدبنا المعاصر يستوعب مجالا فى كتاب أو مجلدة ، وقد يجيء فى كتب إذا قصد منه التوسع والاستقصاء .

وليس هذا الكتاب تأريخاً للأدب الحديث ، وإنما هو دراسة ونظرات فى أدبنا المعاصر ، تبينت فيها المعالم العامة لهذا الأدب فى منابته ونموه ، وأطواره الفنية ، وما يرجى له فى المستقبل . وكنت فى هذه الدراسة مثل مصوّر جلس فى زاوية يرى إلى الأشياء التى يريد نقلها من الوجود إلى الصفحات . وقد يجلس مصوّر آخر فى زاوية مقابلة فيكون أثره مشابهاً فى الشكل واللون أو متفاوتاً .

والكلام على الأدب العربى فى القرن العشرين من الموضوعات الحية التى تصلح لكل يوم ، فقد اخترت للقراء الأعزة هذا الموضوع ؛ لأنه في صميم الثقافة الراهنة لحياة الأمة العربية الحديثة .

الدكتور زكى المحاسنى



الأدب الحديث فى كل أمة مقياس من مقاييس وعيها وتطوّرها فى عالم الفكر والشعور، بل يكاد يكون معياراً دقيقاً لحضارة كل امة معاصرة ، وأغلب ما يكون من الذى يحكم على أدب شعب من الشعوب أنه يتناوله مبتدئاً بالحديث من هذا الأدب قبل قديمه ، وذلك لقرب تناوله فى الحياة الراهنة، وتصويره للظروف والحوادث التى يعيش المرء معها وفيها . وإن تَدَارُسَ الآداب القديمة أو المتوسطة فى زمنها لا يعطي القارىء والباحث، على الدوام ، مساعفة في الحكم عليها حكماً حاسماً كما لو كان فى زمن وجودها ، مهما يتهيأ له عون من مصادر البحث والاطلاع ، وقد يتمنى أن لو كان معاصراً لها ليراها على حقيقتها القريبة . وعلى هذا اعد الأدب الحديث وسيلة قرِيبة للناقد والمستطلع الذى يعيش في زمن ذلك الأدب ، فيستطيع معرفة آثاره، ويتبين اتجاهه ومعالمه، وهو

آخر صورة من صور تالق الأمة فى مجالها الثقافى ، أو انعكاس معيشتها على أساليب التعبير فيها. وبعد فالأدب مرايا صادقة تعكس للناظرين فكر الأمة وفنها ، وتبين مزايا الشعور فيها ، وتكشف ألوان حياتها القومية والاجتماعية .

وينبغى لنا فى حدود هذا البحث أن نتساءل .

هل لدينا أدب عربى حديث بمعنى الحدوث الحقيقى الذى يتجلى فى حياة الآداب المعاصرة لدى الأمم الراقية ؟ وإذا أريد بنا ان نجيب بصراحة ، وجب علينا تعريف الأدب الحديث ، كيف يكون ؟ وما حقيقته فى عالم الفكر والفن والشعور ؟ ثم كان علينا أن نستدل على معالم أدبنا الحديث لنظهر آثاره . وليسهل علينا الاستقراء ، نقسم مرحلة الجواب إلى الأمور الآتية :

إن أرقى الآداب الحديثة فى دنيا الغرب ، لدى الأمم التى بلغت في حضارتها الشوط البعيد ، هو ما كان يتناول خلجات الشعور المعاصر فى حياة الأمة وثقافتها الفكرية والفنية ، وفى مرافق عيشها ونضالها ، ومباهج طبيعتها وانتفاضات حوادثها ، فيصور بالشعر والنثر والقصة والمقال معايش المجتمع ، وإلى جانب هـذا يعرض ذخائر التراث الماضى فى الأدب بصور جديدة ، كما اتفق للكاتب المشهور « جان جيرودو » الذى ألّف فى هذا

العصر رواية مسرحية سماها « أمفيتريون رقم ٣٨ » .

وقد كان القاص اللاتيني القديم (بلوت) في القرن الثالث قبل المسيح وضع مسرحية « آمفيتريون » الأولى . ثم كر الدهر بالأدباء والقصاصين على آثارها فقلدها (روترو) في القرن السابع عشر ثم جاء بعده في القرن نفسه (موليير) فوضع مسرحية هزلية بهذا الاسم ، وأدار الحوادث على اشخاص لهم الأسماء القديمة في مسرحية (بلوت) .

حتى جاء دور « جان جيرودو » فصنع مسرحيته الأخيرة مبدلا بأشخاصها ما يوافق الروح المعاصرة والموضوع الذى يعيش فيه الناس .

وقد ضربنا هذا المثل لندل على ان الأدب المعاصر قد يأخذ من الآداب القديمة روحاً وموضوعاً وشخوصاً . ولكن حياته الجديدة الراهنة تقتضيه أن يلائم بين مراده ومراد الناس الذين يعيشون في العصر الحاضر .

ويتناول الأدب الحديث، إلى جانب ذلك أيضاً ، كل فيض فكرى يدل على الجدة والتطور والانبعاث، وينسكب من أقلام الموهوبين فى الشعر والنثر، فيعرب عن شعورهم فى المجتمع ومرافق الحياة ، ويصور اخلاقهم ، ويعرضها فى معارض التعبير الفنى الذى

يتمثل فى الأسلوب ، وفاقاً للغة السليمة التى يألفها الذوق والجمال .

فهل فى أدبنا الذى نسميه حديثاً ما ينهض به إلى مصاف الآداب العالمية فى تصوير الحياة الراهنة ، وإحياء التراث الفكرى الماضى ، وإعداد الفكر والشعور إلى توثب قادم ، وتجديد افضل ؟ .

فإذا كان لدينا أدب حديث فى نطاق هذا المعنى ، فلنتبين معالمه ووجوده وصوره منذ بدئه إلى خواتيمه .





كانت حياة الفكر العربي فى أواخر القرن الماضى تشهد يقظة بعد خمول وانحطاط ، وكانت البلاد العربية فى ظلال الحكم العثمانى الذى فرض لغة الترك عليها ، دون ان يحسب حساباً لأصالتها وطبعيتها ، وبالرغم مما اصابها أخذت تتبرم وتشكو ، واخذت مصر تنفض عن كاهلها عبء الجمود ، وهبت تفتح عينها على ثقافة الأمم ، فأوفدت بعوثاً علمية إلي الديار الأجنبية ، وافتتحت المدارس ، وظهرت فيها الصحافة والطباعة، وكان أثرها بالغاً فى نشر الوعي وتجديد الحياة والمعرفة، وكانت الديار الشامية على المصطلح القديم تمارس عراكاً فكريا ووطنيا، نبه الشعور إلى كيان العروبة، ووجه الأنظار إلى مستقبلها ووجوب انبعاثها . ولم يكد يتخطى القرن التاسع عشر آخر اعوامه ، ويطل على العالم العربى القرن العشرون حتى كان فى مصر أدباء وعلماء تفقهوا فى الدين واللغة ، وألفوا الكتب ، وكان من

ابرزهم «حفنى ناصف» الذى جمع بين الصناعتين : الشعر والنثر ، وعكف على الثقافة فأحيا النقد الأدبى ، وكتب فى تاريخ آداب اللغة العربية ، وشارك فى التأليف المدرسي لطلاب العلم .

وكان الشاعر الناثر «ولي الدين يكن» يخوض معركة الحرية فى وجه السلطان الأحمر «عبدالمجيد الثانى» سلطان الترك الذى طبع المملكة بطوابع الاستبداد فوقف «ولى الدين يكن» قلمه لحربه ، وقال قصائد رائعة ومقالات حماسية فى كتابيه « الصحائف السود والتجارب » وفى كتابه « المعلوم والمجهول » حتى جعل نطاقاً من الإشعاع حول أدبه ، وقد وقف مثل وقفته الحرة أدباء وشعراء في الشام ومصر والعراق ، طالبوا فيها بتحرير الوطن العربى من ربقة الترك ، وبكشف الحجاب عن وجه المرأة ، ونادوا بالمساواة فى حقوق المواطنين .

ورفدت الأدب الحديث فى فجر هذا العصر روافد اجتماعية وإصلاحية .

تحققت بصيحات الأحرار والمفكرين . وكان فيهم الشيخ « جمال الدين الأفغانى » والإمام « محمد عبده » والمجاهد الحلبي « عبد الرحمن الكواكبي » والشيخ «رشيد رضا» صاحب المنار والعلامة «جورجي زيدان» صاحب الهلال ، وطائفة من العرب

بضفاف النيل شاركوا فى حركة الانبعاث والإصلاح وتوجيه الفكر المعاصر ، وقد صدرت عنهم كتب فى الفلسفة والدين والأدب كانت مصابيح حرية وهداية ، ومن قبل ظهر « عبدالله النديم » [1] اديباً وكاتباً سياسياً وصحفياً ، وكانت له مشاركة فى الحركة الوطنية العرابية و «عبد الله فكرى» [2] وكان شاعراً وكاتباً واعياً ، وكلاهما ذو أثر فى النهضة الأدبية الحديثة ، منذ ظهورها ، فأحدث كل ذلك نهضة جديدة كانت غذاء روحياً لحياة الأدب المعاصر الذى بدت بوادره خلال الفترة التى اتت بعد الحرب العالمية الأولى .

وكانت ثورة مصر عام ١٩١٩ نقطة انطلاق فى الوعى القومى ، ومبعث انتفاضات فكرية ردّد صداها العالم العربى ، وفى الوقت نفسه كان الأزهر فى مصر ، والمجمع العلمى العربى بدمشق وغيرهما من معاهد العربية ومناراتها في بقية البلاد حصوناً منيعة للغة الضاد ، ولم يستطع الاستعمار أن ينال منها .

أما الجامعة التى كان لها السبق فى حياة الأدب المعاصر فهى الجامعة المصرية التى بدات اهلية عام ١٩٠٨ ثم حكومية عام ١٩٢٤ . ولابد من التنويه بفضل الأوائل من اساتذتها الذين علموا الأدب ووجهوا الطلاب إلى ما فى لغتهم وتراثهم من عبقرية وأصالة ،

(١) توفى سنة ١٨٩٦ — (٢) توفى سنة ١٨٨٩

كما كان لبعض المستشرقين اثر فى الدراسات الجامعية الحديثة ، فقد تعاونوا مع المصريين على إدخـال الآداب الأجنبية ، وفى طليعة السابقين طه حسين وأحمد ضيف وأحمد امين وأحمد الشايب وعبد الوهاب عزام ، ومن قبل هؤلاء كان لمحاضرات الشيخ سيد على المرصفى اتجاه افاد التجديد قبل اوانه .

ولعل حركة النقد الأدبى والتطور التى قام بها نفر من نوابغ المصريين فى الربع الأول من هذا القرن لم تكن اقل تاثيراً فى حياة الأدب من الدراسات الجامعية والمناهج الفكرية . وفى هذه الحركة القوية ظهر عباس محمود العقاد بحملة نقد وتقويم شاركه فيها زميله إبراهيم المازنى ، وكانت الأنظار والأفكار تتبع هذه الحملة من قريب ومن بعيد ، ولئن كان فيها بعض التجنى فقد افادت فى توجيه الأدب ودراسته ونقده .

وفى بلاد الشام كان أدب النضال يتمثل فى قصيد الشعراء ونثر الكتاب ، فما كان يتردد فى ذلك الحين إلا ما كان فيه مناوأة الاستعمار وبعث الشعور الوطنى فى الرجال والنساء ، وكان الأدب فى ذلك الحين هو المعبر عن روح الشعب ، وما فيها من رغبة فى التحرر من سيطرة الأجنبي :

إذا ألمت بوادى النيل نازلة
باتت لها راسيات الشام تضطرب

وكانت صرخات الأحرار فى بقية الأمصار العربية تتجاوب بالثورة على المغتصبين وأعوانهم . ولذلك كان من البديهى أن لايلتمس أدباء العرب ماعند القدامى من طراز التعبير فى السجع والتزويق،وإنلم ينفكوا عنهم فى الحفاظ علىالفصحى، وكلما تقدم الزمن بهم ظلّوا يناضلون بأقلامهم وآثارهم لتغيير الحياة الفكرية وتغذية الإحساس القومى والكفاح من أجل الحرية .

وكان لابد للشعوب العربية على اختلاف وعيها ونضالها، من الاتصال بثقافة الآداب الغربية،فعرفت مصر وبعض البلاد العربية الأدب الإنكليزى والفرنسى واتصلت بلاد الشام بأدب الفرنسيين ، وأخذ التمازج الثقافى بين الأدبين العربى والأجنبى يثمر فى مجال البحث والدراسة والتفكير .

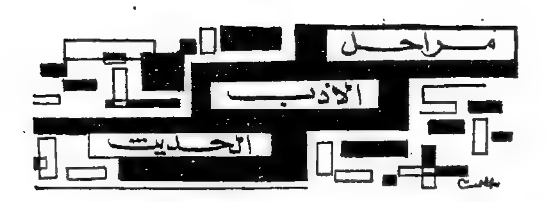
وكانت الجامعة المصرية قد ظهرت للوجود فتألق فى فاتحتها الأستاذ احمد لطفى السيد والدكتور طه حسين والدكتور منصور فهمى والشيخ مصطفى عبد الرازق والأستاذ أحمد امين والدكتور عبد الوهاب عزام ، ثم ظهرت تآليف هؤلاء كمقدمة لانبعاث ادب جديد هو أدب العرب في القرن العشرين . فأعطى الدكتور طه حسين أوائل ثماره فى كتابه « ذكرى أبى العلاء » فأعاد إلى الدراسات الأدبية الحديثة ذكرى ما صنع الأوائل من أجل

حكيم المعرة ، وشاعر العرب العظيم أبى العلاء المعرى ، عارضاً فلسفته وأدبه فى ذلك الكتاب الذى يعد من الآثار الأولى للدكتور طه حسين . ثم قفى عليه بكتابه فى «الشعر الجاهلى» الذى هز العالم العربى يومئذ هزة فكرية عنيفة،ولفت الأنظار إلى أديب حديث طلع على الناس بحرية فى الراى وجدة فى البحث. ثم اشترك بعدئذ مع الدكتور منصور فهمى وأحمد أمين وغيرهم من الأفذاذ المبكرين فى تثقيف النشء فى الجامعة المصرية وإعدادهم لحياة جديدة ، فأحدثوا أدبا حديثاً وصلوه بتراث الأدب القديم .

وكان الشعراء المحدثون الأوائل قد ظهروا بقصائدهم الرائعة فى ملأ أخذته الدهشة في الانبعاث الأدبي .

وقد مرّت حياة الشعر من عهد إلى عهد سنذكره عند كلامنا على الشعر بوجه من التفصيل .





ليس في مقدور القيم الأدبية التي عرفها النصف الأول من القرن العشرين أن تفرض لنفسها تقسيما فنياً يساير النزعات الأدبية والمدارس الفكرية الحديثة، إذ لا نجد حتى اليوم حداً فاصلا بين النزعة القديمة في الشعر العربي والنزعة الجديدة، فأين تنتهي مدرسة شوقي وصحبه ؟ . ما أرى أديباً معاصراً يريد أن يحدد لمدرسة شوقي نهاية . إنها ما تزال مفتّحة الأبواب ، كما لا يستطيع دارس للأدب العربي الحديث أن يحدد نزعة من نزعات القصة عند قصصي خاص . فهل كانت قصص المعروفين المتفوقين بكتابة القصة في أدبنا الحاضر موسومة بطوابع خاصة ، يمشي وراء شخوصها المؤلف فيلونها بطوابع شعوره ؟ .

لقد سيطرت الطوابع الخاصة على آثار الأدب الحديث لدى

الأمم الغربية فكان «برناردشو» ذا نزعة تهكمية جارحة فى جميع أطوار أدبه، فى رواياته وفصوله النقدية، وسيطر التحليل النفسى على أدب « موريس باريس » وكان موصوفا على الدوام بمعالجة قضايا الحياة من زاويته الاعتزالية الخاصة التى يعج فيها شعوره وتأملاته .

فأين نجد فى ادبنا الحديث امثال هذه الطوابع الخاصة فى آثار الأدباء والشعراء وأهل القصة والمسرح ؟ إذ أن هذه المياسم هى التى تؤكد الأصالة الفنية عند الأديب .

ولا نجد فى أدبنا الحديث تيارات عامة أو موجات موصوفة تسيطر عليه ، وتاخذه فى هبوبها ودروبها ، فأين التيار الروحانى فى الشعر العربى الحديث الذى يدل على الأصالة الشرقية ، وعلى أي آثار للشعراء والكتاب يمر هذا التيار ؟ بل ماهى — بالضبط — نزعة شوقى مثلاً فى شعره ؟ هل هى النزعة الإنسانية اوالنزعةالقوميّةأوالفردية؟ ولئن كان «حافظ إبراهيم» قد جرى حينا من الدهر على وتيرة شعر الأحزان ووصف الباساء والهموم،فهل كان ذلك منه مذهباً ؟ أو هو وضعٌ زال من شعره فى النصف الثانى من عمره حين حَسُنَتْ حاله ؟

وكذلك الأمر فى النثر،فإننا لانستطيع أن نضع نهاية لأسلوب

السجع فيه ، إذ لا يزال بعض الـكتاب يستحسنون الأسجاع ، ولـكننا نرى النثر قد تحرر من قيوده السابقة عند أكثر الـكتاب فى هذا العصر ، على أنى لا أنفي عن بعض الأدباء والشعراء نزعات خاصة محدودة كانت تبدو فى منتوجهم وقصيدهم ، لـكنها لم تـكن لتأخـذ طوابع ظاهرة ، وتفرض نفسها على التاريخ الأدبى المعاصر .

وإنه لبديهى أن المقصود بالتيارات الأدبية والنوازع الفكرية لا يتناول الأسلوب فى التعبير وحده ، وإنما يتعلق بالاتجاه العام للحركة السائدة .





أدب ما بين الحربين العالميتين

يرقد الأدب خلال الحروب ، لأنه لا يستطيع أن يتألق في ظلال السلاح وإنما هو يَدخِر الحوادث والمسائل حتى تضع الحرب أوزارها . وكان الأجدر به أن يجود بآثاره إبّان صليل السلاح ودمدمة المدافع ، حتى إذا هدأت الحرب لم يفقد انطباعاته الفورية ، وقد درج أكثر الأدباء منذ أقدم عصور الأدب على الخروج من عزلاتهم وأبراجهم العاجية في عهود السلم والأمان؛ ليقدموا للشعب الأدب الذى كان ينتظره ويتفَقّده ، وهذه الظاهرة تكاد تكون واضحة فى حياة أدبنا العربى الحديث ، خلافاً لما كانت عليه الحال فى الأدب العربى القديم . فإن أروع قصائد المتنبى فى «السيفيات» هى تلك

التى قالها إبان الحروب العربية البيزنطية بين سيف الدولة الحمدانى والقيصر «نيسفور فوكاس» امبراطور القسطنطينية، فى منتصف القرن الرابع للهجرة وفى القرن العاشر للميلاد . وكذلك كان شأن أبى تمام قبل ذلك فى حرب المعتصم فى داخل البلاد وخارجها ، وخاصة فى فتحه لحصن «عمّوريّة» ، فقد صور الشاعر الطائي حريق الحصن ، وكيف هاجمه العرب ، واستولوا عليه . وكان صنعه لهذه القصيدة غداة المعركة — وهو كالمتنبي — كان يحضر بنفسه المعارك ، وقد رافق قائد الثغور وحاميها أبا سعيد الثغرى فى أشهر معاركه مع البيزنطيين فى شمال الشام .

ولعل شوقيا قد تأبى أيضاً على ركود الأدباء إبّان الحرب ، فنظم قصائد فى خلال الحادثات العنيفة بمصر والشام ؛ من بينها قصيدته القافيّة حين ضرب الفرنسيون دمشق بقنابلهم .

ولئن كانت الحروب كالنار التى توهج سبائك الذهب ، فإنها قد صهرت الشعور العربى فى بوتقه الوطنية والنضال ، فكان أدب ما بين الحربين العالميتين بين سنتى ١٩٢٠ — ١٩٤٠ ، خصباً موفور الآثار والإنتاج فى التأليف والترجمة والنشر ، وفى خلال هذه المرحلة تالق نبوغ الشعراء الثلاثة : أحمد شوقى ، وحافظ إبراهيم ، وخليل مطران — فأعطوا عصرنا قيمته

الأدبية فى التاريخ، ووصلوه بتراثنا الأدبي البعيد، بل كان شعورهم فى حينه صدى للوعي القومي والتجاوب الروحي بين البلاد العربية والثورة على الإستعمار ، ومن الحق أن نذكر أن شعر هؤلاء ومن عاصرهم أو جاء بعدهم كان يَرْمي أيضاً إلى الإصلاح وتوحيد الكلمة.

وكانت الجامعة المصرية والمجامع اللغوية فى مصر والشام قد استقرت على حال طيبة من إقبال العلماء والأدباء والدارسين على المشاركة فى توجيه التأليف والبحث ، فقدّمت عتاداً أدبيًّا وفكرياً للأدب القديم ، وكان يَرْفِدُ هؤلاء شيوخُ الصحافة والنقاد الذين أبْلَوْا إبلاءً حسناً في حركة التوجيه والتقويم .

وخلال ما بين الحربين ظهر فى العالم العربي شعراء جُدُد وكتّابٌ مُحْدَثون فى المقالة والقصة والدراسة الأدبية والنقدية ، وكان من حكم الزمن وسبق المواهب والتجاريب أنْ تَقَدَّمَهُمْ فى الصدارة الأدباءُ الشيوخ . وهاهنا حدثت حربٌ أدبيةٌ جديدةٌ على نحو ما يحدث فى آداب الأمم فى فَتَرَاتِ التطور والانتقال — فإن الحرب بالسلاح لم تكد تهدأ حتى هبّتْ حربُ الكلام والأقلام ، فإذا معركةٌ كبرى تدور بضراوة بين أنصار القديم ودعاة الجديد ، وقد ظهرت آثارها ضاحيةً فى مصر حين سميت تلك الحرب « معركة القديم والحديث » وكان يُراد بهذه

التسمية العراكُ بين التقليد والتجديد فأنصار الأدب القديم كانوا حفيظين على التُّراث الأدبى المنحدر إلينا من دنيا العرب فى شعرها ونثرها وطرق تعبيرها ودراساتها الأدبية الموروثة. وكان يمثل الأدب القديم ما عُرِف من دراسات قديمة فى الأزهر ، وعند شيوخ الأدب الذين اتصلوا بالتُّراث الماضى اتصالاً وثيقاً ، ولم يعانوا ثقافةً حديثة ، وبخاصةٍ الثقافاتِ الغربيَّة واللغاتِ الحيةَ .

ويُمَثِّلُ الأدبَ الحديثَ الحركاتُ الأدبيةُ التى كان يمارسها أساتذةُ الأدب بالجامعة وأدباءُ الطليعة ، وبعضُ رجال الصحافة من المجددين ، وفيهم من تلقَّوْا ثقافةً غربية وعرفوا لغة اجنبية حية ، وألموا بآدابها أو تمرسوا بها .

لقد خرجت هذه المعركة من صحن الأزهر وحرم الجامعة إلى حقُول الصحف ، وانقسم فيها المثقفون بالثقافتين القديمة والحديثة إلى معسكرين ؛ واحد من القدامى وآخر من المحدثين ، وكان لهذه المعركة قائدان جسوران : أحدهما مصطفى صادق الرافعى وقد تولى قيادة الجبهة القديمة ، والدكتور طه حسين وقد قاد إلى النصر الأدب الحديث .

ولم يقع قتلى فى تلك المعركة ، ولا سقط فى حومة الوغى جرحى ، وإنما كانت الثورة برداً وسلاماً على الثقافة والفكر

العربى الحديث ، لهيأت أدباً عربياً حديثاً له شانه ، وله كيانه الجديد ، وقديماً عَرَفَ الأدبُ العربى معارك مماثلةً ابدعت الجدَّةَ والحدوثَ فى الفكر والفن والشعور فى عصر بنى أمية وعصور العباسيين والأندلسيين ، ففى عهد بنى أمية قامت حرب شعواء هجائية بين الشعراء الهجّائين : جرير والفرزدق والأخطل ، وفى مستهل العهد العباسى أوقد بشار وأبو نواس حرباً من أجل تجديدهما في الشعر ، وكان لدى الأندلسيين معامع أدبيةٌ سببها شعر ابن زيدون وآثار ابن عبدون وابن خفاجة فى صور الحب ووصف الطبيعة .

وفى فترة ما بين الحربين ظهر فى العالم العربى الحديث فَنّ القصة والرواية ، وقد سبق إلى رعاية هذا الفن والتمرُّس به محمود تيمور وتوفيق الحكيم ، ودأب كل منهما على تغذية الأدب الحديث بقصص اخذت سبيلها إلى التقدير الفنى ، ولم ينم صاحباها على المجد ، وإنما ظــلا دائبين فى الإنتاج والكتابة .

إذا فتحنا دفتر الحساب لنسجل فيه معايير الأدب العربى الحديث ، ولنقرأ مراحل تطوره فإننا نجد الخط البيانى للأدب قد بلغ الذروة فيما بين الحربين ، ومَرَدُّ ذلك إلى أن أعلام الأدب

فى تلك الفترة كانوا قد بلغوا آفاق الأستاذيّة ، وكانت آثارهم التى جادوا بها هى من خير الآثار حتى الآن فى المنتوج الحاضر .
ونستطيع أن نعلل ذلك باسباب اجتماعية وسياسية ، فاما الأسباب الاجتماعية فتعود إلى رخاء الفكر فى تلك الفترة . فإن كل امة تخرج من حرب تحس راحة الأنفاس، وتُؤثِر أن تتمتع بسلام فيه كثيرٌ من التعويض ، فتَنْشُد العيش الرغيد لتغسل نفوسها من أدران الماضى المَقيت . وهذا هو التحليل النفسى الاجتماعى لشعور الأمة العربية بين الحربين . فإن الصناعة قد أخذت بالظهور ، وكانت التجارة قد استعدّت لتوفّر لأصحابها ذُخراً وكسباً ، وقد عاد الأمن والنشاط للناس ، وفُتِحت المدارس وأسست المعاهد والجامعات، وأحدثت وظائفَ للمتعلمين ، لكن الحياة السياسية ، على عنفها آنئذ بمناضلة الاستعمار ، كانت وسيلة جديدة إلى تألق الأدب وإذكاء الفكر، وبعث الروح الوطنية، حين غلا المغتصبون والمنتدَبون فى طغيانهم ، فلقد كان عهد الانتداب والاحتلال فى مصر والبلاد العربية سبباً فى قيام العراك السياسى بالسلاح والدماء بين المواطنين والمحتلين ، وكان على الأدب العربى أن يؤدى دوره فى التعبير عن آلام الأمة وآمالها ، وأن يلتزم قضية الجهاد من أجل الخلاص والحرية ، فظهر الشعر الحماسى والمقالات

الوطنية ، وأسهمت الصحافة الصادقة فى المعركة الوطنية ، كما أدّت خدَمات بعيدة فى الأدب الحديث بنشر آثار أصحابه ، وتشجيع النوابغ والموهوبين ، واخذت دور النشر تُعْنى بكتب المؤلفين ، وكان الأدباء الفحول والشعراء الشيوخ الذين عاشوا فى هذه الآونة مثل سَدَنة لهيكل الأدب ، فنهضوا بأعباء وتبِعات ، وهم جماعة عرفهم العالم العربي بجهودهم الفكرية وآثارهم المنشورة ، وقد ظلوا مثابرين على الإنتاج الفكري والأدبى ، حتى سجّل التاريخ الأدبى الحديث أسماءهم بكثير من الفخر والاعتزاز. وفى طليعة السابقين والمشهورين : طه حسين . ومحمد حسين هيكل . وعباس محمود العقاد . وأحمد أمين . وأحمد حسن الزيات . وإبراهيم المازني . ومصطفى صادق الرافعى . ومحمد كرد على . وشكيب أرسلان . وعمر الفاخورى .

وضمت طائفة الشعراء : أحمد شوقى . وحافظ إبراهيم . وخليل مطران . ومعروف الرصافى . وجميل صدقى الزهاوى . ورضا الشبيبي . وأحمد محرم . وأحمد الكاشف . ومحمد البزم . وبدوى الجبل . وعبد الرحمن شكرى . وبشارة الخورى . وأمين نخلة ، وغيرهم — ممن ظهرت آثارهم بين الحربين أو بعد الحرب الأولى . وكان في الشعراء بعد هؤلاء : أحمد زكي

ابو شادى . ومحمود أبو الوفا . وعلى محمود طه . وإبراهيم ناجي . وحسن كامل الصيرفى. وإبراهيم طوقان. وأبو القاسم الشابيّ . وعمر أبوريشة وبدر الدين الحامد . ومحمود حسن اسماعيل . وصلاح لبكى . وسعيد عقل ، والياس أبو شبكة ونديم محمد ، وسليمان العيسي —

وقد شاركت المرأة العربية فى الحياة الأدبية كاتبة وشاعرة وقصصية ، فلمعت « مى زيادة » إبان الثورة على القديم وفى صدر النهضة الفكرية والاجتماعية ، وكان لنبوغها ونَدْوَتها أثرٌ بعيد فى حياة الأدب والأدباء ، وقد ظهر بعد مي أدب نسوى رفيع سار جنباً إلى جنب مع أدب الرجال . فإن بواكير نبوغ جديد قد أطلّ من أقلام رصينة خصبة لموهوبات جامعيات وغير جامعيات أتْقَنَّ العربيةَ وبعضَ اللغات الغربية وتثقفن بأرفع الثقافات وكانت آثارهن للنوّعة شاهدةً على ما قَدَّمْنَ فى فنون الأدب ومجال الحديث والمحاضرة من إخلاص ومقدرة وإبداع ، فإذا جاء ذكرهن بدرت إلى المسامع أسماء الشاعرات والأديبات : الدكتورة سهير القلماوى . والدكتورة عائشة عبدالرحمن « بنت الشاطيء » . وأمينة السعيد . ووداد سكاكينى . وفدوى طوقان . وملك عبد العزيز . ونازك الملائكة . وثَمَّةَ سواهن ممن يمضين فى أول الطريق وأدبهن مَرْجُو قريب .

وضمت ديار الهجرة الأمريكية فى الشمال والجنوب من الشعراء إيليا أبو ماضي ، وسليم الخورى المعروف بالشاعر القروى . وجورج صيدح . والياس فرحات ، وشفيق المعلوف وغيرهم ، فكانت أشعارهم تعبر المحيطات إلى الديار العربية داعية للروح العربية والشوق إلى المشرق .

ومن الأدباء المبدعين : جبران . وميخائيل نعيمة . والريحانى . وسواهم ممن شاركوا من قريب ومن بعيد فى تجديد الأدب ودعمه بآثارهم ونفحاتهم — كل ذلك كان من الأسباب العاملة على خلق الوعى الاجتماعى والأدبي فى الزمن الذي انحصر بين الحربين الماضيتين ، كما استقر وضع الأدب الحديث على دعائم متينة كونت ذاته، وأظهرت معالمه الخاصة ، ومثلت صفاته كأدب حديث ، يريد — عند بعض ذويه — لِيَتخلَّصَ من رِبْقة الآداب القديمة التى استحكمت صلاتها به فى التعبير والأداء والمعانى والموضوعات ، وخلال تلك الفترة أيضا تألفت جمعيات فكرية وأدبية أظهرت للناس ثمرات الأفكار وزهرات الفن والشعور ، فإن الجمعية الفلسفية التى تكوّنت فى مصر أخذت تنشر كتباً فى الدراسات الفلسفية اليونانية والإسلامية ، كما تكونت جماعة من خيار المفكرين نهضت بترجمة المَعْلَمَةِ الإسلامية ففتحت

بابا ثقافيا متسعاً للإحاطة بالتراث الإسلامي الذى تعب فى تدقيق وصفه وبحثه جهابذةُ المستشرقين، وظهرت لجنة التأليف والترجمة والنشر فى مصر بمنشورات لأعضائها وصَحْبِهم كانت جليلةَ القَدْر والفائدة .

وكان محور الأدب العربى الحديث يدور فى مصر على مجلتين اديبتين كبيرتين عاشتا بين الحربين عيشة الرَّغد الفكري وهما مجلة « الرسالة » للكاتب البليغ أحمد حسن الزيات ومجلة « الثقافة » التى أشرف على تحريرها البحاثة الأديب أحمد أمين ، ولا تزال مجلة « الأديب » فى بيروت للمفكر الكبير البير أديب تحمل رسالة الأدب والنقد منذ بضعة عشرة عاما بجد ودأب، ودون معونة حكومية وإن صاحبها ليعد من دعامات الأدب الحديث فى الشرق العربي ، ثم ظهرت بعدها « مجلة الآداب » تؤدي رسالة البعث والتجديد فى حياة الفكر العربى المعاصر ، وقد انشأها الدكتور سهيل إدريس وهو يرعاها بادبه وفكره . كما ظهرت مجلة (الرسالة) اللبنانية وقد حررها الكاتب المجدد « جان كميد » وظهر منها أعداد ممتازة فى دراسة الأدب المعاصر والأدباء والشعراء العرب الخالدين فى العصر الحديث ثم كان احتجاب هذه المجلة خسارة للأدب الصاعد .

وقد احدثت هذه المجلات الثلاث حركة ادبية فى العالم العربى كله ، وظهرت علي صفحاتها أقلام الشعراء والـكتاب من شيوخ وكهول وشبان وجرت فيها مطارحات أدبية ومناقشات ودراسات وحلقات نقد ، ألقى أشعة التميز والرأى على كثير من القيم الأدبية ، وتـكاد تؤلف مجموعات هذه المجلات الأدبية الثلاث سجلاً حافلا للحركة الأدبية الحديثة .

كذلك كانت ملامح الأدب العربى الحديث فى ديار العرب وما وراء البحار وفى مرحلة ما بين الحربين العالميتين في العصر الحاضر .





تأثرت الآداب الغربية بكابوس الحرب العالمية الثانية — وإن كان مسُّها رفيقاً فى بلاد العرب — وخرجت منها الأمم الغربية منهوكة القوى توشك أن تضمحل ، ولكن سرعان ما رمت بلادها وضمدت جراحها ثم أخذت فى ترميم النفوس ، وقد ظهر بُعيْد هذه الحرب أن أكثر الأمم التى خاضتها قد خرجت منها بنزعات مادية أبعدتها عن المثالية الروحية التى كانت تسعى إليها قبل الحرب الجامحة الأخيرة ، وفقدت بعضها المعنى الإنسانى لكلمة «المواطن» التى كانت تميز الفرد من أفراد الأمة بروحه الوطنية ، وهبَّ أدبٌ غربى حديث يُعْنى

بالموضوعات التى تتناول رفاهية الشعور وتسلية العقول ، وإن كانت ساحة الآداب الغربية لم تخل من الأدب الرفيع والنزعات الإنسانية التى كانت تميز الأدب ما بين الحربين .

ولعل العالم العربى الذى لم تمر عليه تلك الحرب بويلها وكوارثها قد عملت فيه عوامل الاستمرار ، فخرج أهلوه يحملون فى أنفسهم الطوابع ذاتها التى كانت لهم من قبل . ولكنى أجد النكبة الفلسطينية قد أثّرتْ فى الشعور العربى وخلقتْ جواً جديداً من الشعور الوطنى الثائر والباكى على تشرّد القسم الأكبر من الفلسطينيين الذين أخرجوا من ديارهم وبلادهم ظلماً وعدْواناً ، ولكن هذه الثورة فى الشعر الحديث كانت تعبيراً عن الأمل الكبير فى العودة إلى الأرض المغتصَبة ، ولن تهدأ هذه التباريح والمواجد إلاّ برجعة الحق الصُّراح إلى اهله ، وإن هذه النكبة التى كانت منها نقطة الإنطلاق فى تحرير مصر و بعض البلاد العربية من رواسب الاستعمار وطغيان أعوانه وممثليه لجديرة بملحمة يُبْدعُها أحَدُ شعراء النكبة أو الذين فى مُكْنتِهِم وضعُها وإعدادُها ، لتصوِّر الهولَ والغدر اللذين توسلت بهما الصهيونية الباغية لتشريد الآمنين فى بيوتهم و بلادهم تحت كل سماء ، وقد فاتها أنهم عائدون .

وكانت معارك العدوان على بور سعيد منذ بضعة أعوام ملاحم حية ظهر فيها شمم المُـواطن ، وكيد المستعمر ، وغَـدْرُ أعوانه الذين يصطفيهم لإيذاء البلاد التى صبرت طويلا على طغيانهم ، حتى خلصت منهم ، وإن وقائع المعركة ونضال المواطنين حفزت القرائح لتصوير الحوادث شعراً ونثراً ، فجاءت صادقة التعبير مو ّاجةً بالوان البطولة والإباء، ولقد كانت قصة العدوان الفظيع على كل لسان عربي واجنبي فياضة بالتهكم على الغاشمين، والإعجاب بتجاوب مصر والشام فى الثورة على المعتدين ، مما زاد فى تقوية الروابط بينهما ، ولهفة البلاد المجاورة والمتحررة فى التساند والمعاضدة لتحقيق الوحدة المنشودة .

ولزمت روح الاستمرار حياة الأدب بعد الحرب الثانية فلم يحدث فيه من جديد إلا ذلك الضرب من الشعر المرسل الذى اقبل على صنعه الشبان المتعجلون ، فلم يكن شعراً ولا نثراً ، ففقد الصناعتين ، ولم يدرك غايته من التجديد ، وهو لا يزال فى طور التجارب .

فنون الأدب العربى الحديث

عرف الأدب العربى الحديث فنوناً من الكتابة وضروبا من

القول امتزج بعضها ببعض وأثرت جوانبُ منها في أخرى ، وكان بعضها مماثلاً لما كانت عليه هذه الفنون الأدبية في العصور السابقة البعيدة ، وبعصر الانحطاط الذى غلب فيه اللفظ المعنى ، وكيف كان الأمر، فإن عناصر ثلاثةً جامعةً تظهر في أشكالها أدب العصر ، وهي :

النثر الحديث

لم يخضع ضرب من ضروب الأدب العربي لمثل ما خضع له النثر ، فإن هذا الكلام الراتب المتتابع الذى يسمونه النثر ، هو المعبِّرُ عن التفكير الإنسانى والإحساس بشئون الحياة والمجتمع .

لقد أنكر علماء اللغات المُحْدَثون في الغرب والشرق أن يكون للجاهلية نثر ، وإنما كان لهم شعر فحسب ، وأما النثر المكتوب فهو أثر من آثار العربية في عهود الإسلام ، فلما جاء القرآن الكريم ببيانه وتعبيره الجميل ، سار النثر الفنى على مراحل جاداً بليغاً ، فأدّى رسالته على خير ما تؤَدّى رسالات الكلام ، وأخذت تظهر بوادره الرائعة منذ كتب فيه أوائل الكتاب من البلغاء والمترسلين ، وفيهم : عبد الحميد

ابن يحي الكاتب فى العصر الأموى ، ثم عبد الله بن المقفع في مستهل القرن العباسى الأول ، حتى جاء أبو عثمان الجاحظ شيخ كتاب العربية فى عصر بنى العباس ، وكانت طبيعة النثر سليمة من التكلف وصناعة التزويق ، ولما جاء القرن الرابع للهجرة طغى على النثر العربي زُخْرُفُ اللفظ بأقلام الوزير ابن العميد والصاحب بن عباد الفارسيين وأمثالهما ، ثم زادت التزاويق الصناعية فى النثر العربى لدى القاضى الفاضل البيسانى كاتب العرب إبان الحروب الصليبية وكانت تلك الصناعة تتحلى بالسجع والمحسنات البديعية ، فصار النثر العربى أشبه بتمثال من المرمر المنزوق ، لعله جاوز حدوده المعنوية فكان كجسم بغير روح .

ثم خلا العصر العباسى سنة ٦٥٦ وورثت القاهرةُ حَضَارةَ الفكر العربى بعد بنى العباس ، وكانت الصناعة اللفظية قد علِقَتْ بالنثر العربى ، فَسَادَ الأقلامَ تَعَنت وجود ، وتلاعبٌ بالألفاظ حتى أُلِّفت كتبُ التاريخ بالسجع ، ولعبت الأقلام على الطروس ألاعيب بهلوانية ، كما تلعب فى حلبة (السيرك) .

وقد بقى هذا التزويق فى التعبير على أنماط شتى ، حتى جاء هذا العصر ، وأخذ الأداء يتحرر من التسجيع ، ورصف الألفاظ

التي كان يتفنن الكتاب في صوغها ، ويتكلفون حشرها ليدللوا على براعتهم واقتدارهم فيها ، فلما مضت الأيام واحتك الأدب العربي بأدب الغرب ، ودبّ التطور في النثر ظهرت أساليبُ جديدةٌ خاليةٌ من التكلف في التعبير ، وكان من أوائل الذين حرروا الكتابة من الصناعة اللفظية «ولى الدين يكن» ثم توالت الأقلام المجددة بعد المنفلوطي بالعقاد وطه حسين والمازني ، وأخذ التعبير الحديث يلتمس السلامة في الإذاعة والبُعْد عن التنطع ، حتى آثرت بعد ذلك طائفةٌ من الكتاب السهولة والتخفف من البيان ، غير ان فريقاً آخر استمسك ببلاغة الأسلوب ، والحرْص على عبقرية اللغة ، ويمثّلُ هذا الفريق أحمد حسن الزيات ومصطفى صادق الرافعي ، فلم يسلم النثر الحديث على الرغم من التطور من صور بيانية بديعية ؛ مازالت حتى الآن دأب بعض الكتاب .

ولعل التطور في النثر العربي لم يخضع كله لزمن محدود فإن نثر ولى الدين ، الذى عُرِفَ في فاتحة نهضتنا الفكرية ، لايختلف عن طبع النثر في أيامنا لدى أنداده المشهورين .

ولكي نُعْطِي القارىءَ أمثالاً من هذا النثر اخترنا هذا الفصل لهذا الأديب السباق ، الذى حرر أسلوبه قبل

الأوان ، من كتابه « الصحائف السود » وهو قطعة من رواية تمثل السلطان عبد الحميد الثاني ملك الترك يحاور زوجةً من زوجاته قبل أن يقتلها :

« في قصر من قصور الملك تحت ليلة من ليالي الشتاء ، مُتَغَوِّرَةِ النجوم حالكة الجوانب ، رجلٌ كالراهب المتبتِّل ، بادي الكَمَد ، مستطرد الخطوات ، زائغُ البصر ، متخاذلُ الأطراف ، أخذ يمشي في حُجْرته ساعتين أو أكثر مُطْرِقاً مفكرا ستما كليلا ، فلما توسط المكان رفع رأسه ونادى: يا «هجرانُ» ، فدخلت عليه بيضاء اللون، صفراء الشعر بين القبيحة والوسيمة ، فلما مَثَلَتْ بين يديه قال :

— أما آن لك يا «هجران» أن تصدقيني وتنطقي بصاحبات لك حلت بهن نِقْمتي ، فاطرقت المرأة مليّاً ثم قالت :

— أمّا إذا لم يكن من الصدق بُد فلا يسعني إلا الإخبار بما أعلم .

— هاتِ ماعندك .

— الذي أعلمه أنها لاتحب مولاي ، مارأيتها يوماً تَطْرَبُ لذكره كما تطرب ضرائرها ، ولا رأيتها تعجب بشيء يكون قِبَلَهُ كما تعجب أترابُها ، ووالله لاادرى مالها ، ولقد أخبرتْها إحدى جواريها خبراً .

— ماذا قالت لها ؟

— قالت لها : إن مولانا قتل اثنى عشر تلميذاً ، صَبَّ فى أفواههم الرصاص، فبكت وقالت: اللهم هذا ظلم لايرضيك .

— كل ماتخبريننى به خارج عن سؤالى . أنا أريد أن أعلم كيف أحْرَقَتْ الستارين .

— هذا سرٌّ لايعلمه سواها .

— اذهبي فقولى لها إنى قادم عليها .

فخرجت الوليدة وبقى هو وحده ، ينظر إلى السقف ولا يرى مافيه ، ثم تقدم إلى خزانة سلاحه فأخرج منها ثلاثة مسدسات جعل اثنين منها فى كمه ، وأبقى الثالث بيُمْناه ، وخرج بعد ذلك إلى حيث خرجت الوليدة .

* * *

وهكذا تتجلى فى هذه القطعة ، من نثر ولى الدين يكن ، صلة الديباجة بكلام العرب المبين ، وقد جاءت بالجديد فى أدب العرب الحديث وهو فن الحوار ، وكان قد كتبها ولي الدين سنة ١٩١٠ ، فسبق إلى هذا الفن .

ولنعرض للقارئة والقارىء صورةً من نثره طابع آخر يمثّل التطور الذى وصل إليه في هذه المرحلة المتوسطة من عصرنا ،

وقد اخترنا نموذجاً من أداء طه حسين [1] حيث يقول :

«وفى الحضارة الحديثة كثير من النقائص وكثير من الآثام . ولكن الشعوب الجديرة بهذا الاسم تجدُّ فى إصلاح هذه النقائص وهذه الآثام تنقيةً للحياة الإنسانية من كل شائبة تَنْقُصُ من قدرها ، فإذا دعونا إلى الأخذ بأسباب الحضارة الحديثة كاملة ، فنحن لا ندعو إلى الأخذ بما فيها من النقائص والآثام ، ولم نسمع قط أن الفن الجميل نَقْصٌ أو إثمٌ ، وإنما سمعنا دائماً وعرفنا دائماً أن الفن الجميل كمال ونقاء ، فيه تزكية القلوب وترقية العقول وتصفية الأذواق ، والفنون الجميلة بمعناها الدقيق هى السبيل الوحيد إلى السعادة ، والفن الجميل على اختلاف أنواعه هو السلم الذى يتيح للشعب أن يرقى ويسمو بعظائم الأمور وجلائل الأعمال » .

وقد تناول النثر الأدبى الحديث فنيًّا كان أم مرسلاً مواضيع اشتاتا في حياة الفرد والمجتمع وفى تصوير الطبيعة والأخلاق فى عرض المشكلات الفنية والاجتماعية ، وأصبح من مظاهر التطور الحضارى الحديث فى حياة العرب ، إذ أصبح

(١) من مقال لطه حسين فى كتابه « من أدبنا المعاصر » بعنوان « الكلمة الضائعة » .

قادراً على التعبير والأداء في كل صورة يمكن ان تعرض وفى أى موضوع .

وإذا كان النثر يختلف فى مجالاته عن الشعر المعاصر الذى عاش قليل التطور ، فإن النثر المعاصر قد ارتقى فى عصرنا وأصبح متميزا من النثر القديم بانطلاقه من قيوده القديمة واستعداده ليكون صوراً متنوعة فى التعبير وفقاً للذوق الحديث، تاركا خلفه مراحل الشعر العربى الذى تخلف فيها فلم يلحق بالنثر ، ولم يكتسب مزايا التطور والانطلاق، وقد صار بطاقة النثر الحديث أن يساير العلوم ومصطلحات الفنون وأن تكتب به موضوعاتها جميعاً ، كما أصبح الأداة التعبيرية الطيبة فى التأليف والترجمة وفى الإذاعة والصحافة وسائر ضروب النثر .

وهو إذ قدر له أن يعيش فى نجوة من سطوة اللغة العامية واللهجات المحلية والإقليمية التى تباعد بين العرب وتضعف قوميتهم المتوثبة ، فقد سلم من العثرات ليحمل رسالة الفكر والأدب والفن إلى الأجيال الآتية متمماً الخطوات الجبارة التى خطاها تاريخ النثر العربى منذ أقدم العصور حتى اليوم .



لا ريب في ان تراثنا العربى فى الشعر من أغنى مواريث الأمم الخالدة ، وقد عكفت الأمم كما عكفت العرب على تراث شعرها القديم إذ وجدت فيه سجل حوادثها وحمى تاريخها ومناط عزها ، فراحت تفاخر به وتكاثر ، لأنه ذخائر فنية كالجواهر والأعلاق النفيسة ، يحمل مجد الأمة ويوطد بناءها الحضارى فى الأدب والفكر والثقافة .

وقد عاش العرب القُدامى والمحدثون حفيظين على هذا التراث الغالى ، وكم يشوق الأديب الحَقّ ، والذى يعيش فى القرن العشرين أن يترنم بقصائد أبى الطيب المتنبى فى العزة والبطولة ، وفى وصف الحروب بين سيف الدولة والروم ، حتى يجد الحماسة الملتهبة عند أبى الطيب توازى ما كان عند «هوميروس» فى وصف معارك « طروادة » بإلياذته الخالدة ، والأديب العربى

المعاصر إذا عاد صعُداً فى تاريخنا الأدبى راقه ان يقلّب وجوه الإعجاب في شعر الجاهليين ، فتمثل امرأ القيس يناجي ابنة عمه « عُنَيزة » وقد اردفها على ناقته التى راحت تخفقُ بهما عبر الصحراء اللافحة بهجيرها فى مُنساب رَمْلَة مَيثاءَ ، وكأنه يسمع قوله فى تلك النجوى : —

تقول وقد مال الغَبيطُ بنا معاً

عَقَرْتَ بعيرى يا امْرأَ القيسِ فانْزِلِ[1]

فقلتُ لها سيرى وأرخى زِمامهُ

ولا تحْرِمينى من جَنَاكِ المُعَلَّلِ

وتزاحم الصور على الأديب المعاصر من الشعر العربى القديم في مختلف عصوره ، فيراه مرايا لحياة العُروبة على الدهر ، يعود إليها جيلاً بعد جيل .

وكذلك ، فإن السلسلة الذهبية للشعر العربى وصلت إلى عصرنا وكان آخر من اداها من القرون الماضية إلى العصر الحاضر الشاعر الفارس محمود سامي البارودى ، فإن هـــذا

(١) الغبيط : ما يركب عليه فوق المطية .

الشاعر المغوار كان ربًّا للسيف والقلم ، فكان شعره جسراً بين الشعر القديم والحديث .

وكان بديهيّاً أن يظهر شعر البارودي تقليديّاً كالشعر القديم او أن يعيش شعره بتلك الروح القديمة ، فظهرت طوابع التقليد على كثير من شعره ، وكان من اليسير عقد المشابهات بين أبياته وأبيات من أبي تمام والبحتري وأبي فراس وأبي العلاء المعرّي . وكان من ولوعه بالشعر القديم أن ألفَ بين مختارات منه عُرفت بمختارات «البارودي» جرى فيها على غرار الشاعر ابي تمام الطائي الذي انتقى في عصره مجموعةً من الشعر سماها « الحماسة » .

ولعل القارئ يُؤثِرُ الاستماع لهذه الأبيات التي قالها البارودي ليجد عليها الطوابع القديمة :

هو البينُ حتى لا سلامٌ ولا رَدُّ

ولا نظرةٌ يَقْضى بها حَقَّهُ الوَجْدُ

فيا قلبُ صَبْرًا إنْ أَلَمَّ بكَ النَّوى

فكُلُّ فِراقٍ أو تَلاقٍ لَهُ حَدُّ

على هذه تجـــرى الليالى بحُكمها

فآونةً قُرْبٌ ، وآونةً بُعْدُ

وما طوابعها القديمة إلامن الشاعر أبي عبادة البحتري الذى قال قصيدته على هذا الروِىّ ، وبالقافية نفسها : —

سلامٌ عليكم لا وفاء ولا عَهْدُ

أما لَـكُمُ من هَجْرِ أحْبابِـكُمْ بُدُّ

وقد دارت تلك القصيدة فى ذهن الشاعر البارودى حتى لم يـكن ليخلص من طوابعها عند البحترى الذى يقول فى هذه القصيـدة :

لقد حكمت فينا الليالى بجوْرها

ويكاد البارودى وحفنى ناصف وإسماعيل صبرى يؤلفون المرحلة التّمهيدية للشــعر الحديث ، وتتصف آثارهم جميعاً بالتقليد والحفاظ على الديباجة العريقة للشــعر العربى فى جزالته . ولم يخــل شعرهم من الصور الحيــة التى كانت تتراءى فيها الحياة السياسية والاجتماعية فى زمنهم ، وتنعـكس عليها مشاهدهم النفسية ، ولـكن مرحلة هؤلاء تضاءلت —

وظهر فى ادب المجددين كتاب « الديوان » المشترك للعقاد والمازنى وفيه حملتهما القاسية على الشعر التقليدى ، ومن وراء البحار أرسل الأديب المهجرى ميخائيل نعيمه رأيه فى حركة الأدب والنقد ، وقد اشتمل كتابه « الغربال » على هذا الراى الجرىء الذى حلل فيه اصول الكتابة ، وغربل الأسباب التى تجدد الأدب وتخلصه من التقليد المطول .

ولقد كان لهذه الوثبات فى النقد الأدبى من حين إلى حين أثر فى تطور الشعر وتقويمه ، وكثر عدد الشعراء الذين تمازجوا بالثقافة الغربية ، فدخلت ألوان جديدة على الشعر بعد البارودى ، وتنوعت ألحانه وصوره ، لكن شوقى الذى أصابته ضربات من نقد المازني والعقاد كان يتجاوب مع الحياة ، ويمضى فى خطاه مرموق المكانة ، مرجواً ، فى شعره الذى كانت تزيده الأيام والحوادث قوة وجمالا حتى أخذ شوقى يحتل آفاقه الفنية ، ويطلع على العالم العربى بشعر كان الغناء فيه فرح الشرق والعزاء فى أحزانه .

* * *

شوقي شاعر الشعب

ما اشبه رجعة الشاعر احمد شوقي من منفاه بالأندلس عام ١٩١٩ برجعة الشاعر « فيكتو هوغو » من منفاه بجزيرة « جيرزى » بحر بلجيكا ، إن الحنين كان فياضاً فى قلبَىْ الشاعرين،وقد ارتد «هوغو» إلى وطنه ليُتِمّ اناشيده الوطنية التى أقلق بها الطغاة ، وكذلك شوقى ، فإنه عاد إلى أرض العروبة بضفاف النيل ليُعَبر عن آمال شعبه الذى كان ثائراً للخلاص من استبداد المستعمرين ، وكان هذا الشعب المجاهد يحاول فكّ الأغلال فى ظلال الطغيان الذي كان يهيمن على البلاد ، وقد تلقى الشعب شاعره بشوق ، واجداً فيه صدى تعبيره وحاجته كما تلقى شوقي وطنه بقوله : —

وياوطَنِي لَقيتُكَ بَعْدَ يأْسٍ   كأنّى قَدْ لقيتُ بكَ الشّبابا
أُديرُ إليكَ قبل البيتِ وجهى   إذا فُهتُ الشهادةَ والمَتابا

وما كان شوقى — كما يقول بعض نُقاده — صنيعةَ القَصر فإنه فى ظلال ذلك القصر الذى احتوى شبابه كان يُنَددُ بالمستعمر ، فيقول فيه :

اليومَ أخلفتِ الوعودَ حكومةٌ
كُنّا نظن عهودَها الإنجيلا

دَخَلَتْ على حُكْمِ الوِدادِ وشَرْعِهِ
مِصْرًا فكانَتْ كالسُّلالِ دُخولا

هَدَمَتْ معالِمَها وهَدَّتْ رُكْنَها
وأضاعَتِ استقلالها المأمولا

ولقد تَجَلَّت حقيقةُ النزعة الشعبية فى أدب شوقى فيما قاله من القصائد التى تناول بها المجتمع ، فعكف على خواطره يُهَدْهِدُ بها آلام العرب، ويغنّى لأفراحهم ، ويتجاوب معهم فى الحوادث والخطوب .

ولقد قالت الجمهورية العربية المتحدة رأيها فى شاعرها الخالد شوقى حين خطب وزير التربية والتعليم فى حفل الذكرى الذى أقيم لشوقى بالقاهرة فى الشهر العاشر من عام ١٩٥٨ لمرور ربع قرن على وفاته فقال : « كان أحمد شوقى برهاناً صريحاً ودعامة من دعامات القومية العربية وامانيها ، وإن شوقياً على الرغم من موضعه من السلطات الحاكمة فى زمانه لم يكن يدع فرصة

يملك فيها حرّيةَ التعبير ضدّ سلطة الحاكمين إلا انتهزها ليكون لأمته لسانَ صدق يعبر عن إحساسها القوى الدافق » ..

وكان هذا رأينا فى وطنية شوقى وشعوره القومى ندعّمه بما فى شعره من شواهد الإخلاص لقضية العروبة ، وإنهاضها من كبواتها التى تعثرت فيها فيما مضى من السنين .

وحين ابتُليت ديار العرب فى الشام بنكبات المحتلين هبّ شوقى ينشد على قيثاره المحزون تلك الفجائع ؛ ويسوق رواعد غضبه فى روائع مواساته بقصيدته التى قالها فى الثورة السورية عام ١٩٢٥ :

أَلَسْتِ دِمَشْقُ للإسلام ظِئْراً ومُرْضِعَةُ الأُبُوَّةِ لا تُعَقُّ

دَمُ الثُّوَّار تَعْرِفُهُ فَرَنْسا وتَعْلَمُ أنه نُورٌ وَحَقُّ

وللأوطانِ فى دَمِ كُلِّ حُرٍّ يَدٌ سَلَفَتْ ودَيْنٌ مُسْتَحَقُّ

وللحُرِّيَّةِ الحَمْراءِ بَابٌ بكل يَدٍ مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ

وكان في شعره رسول الوحدة العربية الكبرى إذ يقول :

ونحن فى الشرق والفُصْحَى بَنُو رَحِمٍ

ونحن فى الجُرْحِ والآلام إخوان

وقد ترامت شهرته على المشرق ، فعدّ شاعرَ العرب فى العصر الحديث .

ونهضت فى حياته وبعد موته اقلامُ النقاد والمحللينَ لأدبه، فأظهروا روائعه، وألَّفوا الدِّراسات الطويلةَ فى شعره وآثاره المسرحية.

وتناول شوقي فى فنه الكبير أغراضاً سامية من الحياة والإنسانية والطبيعية والشعور القومى. وديوانه الكبير حافل بنماذج من شعره الذى يمثل النهضة حق قِمَّةَ الشعر فى عصرنا الحديث، لقد كان شوقى إنساناً صافياً، وكان بارعا فى الوصف يُضفي على الصور المرئية من فنه العبقرى روعةً وتهاويل، وبِحسبي أن أذكر له أبياتا فى الشعور الوطنى يقول فيها:

فى مِهْرَجانِ الحقِّ أو يوم الدَّمِ
مُهَجٌ من الشهداء لَمْ تَتَكَلَّمِ
لم لا تُطِلُّ من السماءِ وإنَّما
بَيْنَ السحاب قُبُورها والأنْجُمِ
لا بدَّ للحُرِّيَّة الحمراء مِنْ
سلوى تُرَفِّدُ جُرْحَها كالبَلْسَمِ

يومُ البطولة لو شهدتَ نهارَهُ
لنظمتَ للأجيال ما لم يُنظَمِ

* * *

تجديد شوقى

لئن قلنا إن شوقيًّا كان شاعراً مقلداً ، فإن ذلك ينصرف إلى عمود الشعر الذى رفعه شوقى فى شعره — على نحو ما كان يُعَبِّرُ النقاد السابقون ، إذ جاء بشعره على طريقة الأقدمين باتباع البحور الخليلية ، وممارسة الأوصاف والمبانى التى جرى عليها الشعر العربي القديم ، فى الغَزَل والمديح ، وتكرار الأقيسة التعبيرية التى عُرِفَتْ عند أبى الطيب المتنبي وأبى تمام . لكننا نراه قد اتى بالجديد حين تَفَرَّغ لكتابة المسرحية العربية الحديثة . ولا نشك فى أن شَوْقِيًّا حين طلب العلم في باريس ناشئاً قد اطَّلَع على الحياة المسرحية هنالك ، وقد شاقه هذا الفن المسرحي فكتب خواطره المُبَكِّرةَ يومذاك فى روايته المسرحية الأولى « على بك الكبير » .

وفى آخر حياة شوقى ، وبعد موته ، عَرَفَ النُّقاد فى آثاره المسرحيةَ روعاتها ، وعَدُّوها فى آثاره عملاً أدبياً جديداً ، وإنَّ

الأدب العربى الحديث، وإن يكن قد عـرّف الآثار المسرحية عند بعض المؤلفين العَـرَب قبل شوقى ، كالشاعر نجيب الحداد، لـكن شوقيًّا تـفَـرّغَ لهذا الفن فى الثلث الأخير من عمره ، فلم يغادر الحياة حتى أعطى الوجودَ المَسْرَحِىّ في ديار العَربَ سَبعَ تمثيليات فائقة .

وقد كان متأثّـراً في فنه بآثار « شكسبير » خاصة حتى قَلّده فى رواية « مصرع كليوباترة » كما أخذ موضوعات بعض مسرحياته من التاريخ العَرَبي القديم كمسرحية « مجنون ليلى» التى عاشت حوادثها زمن بنى أمَيّة . واستمد من التاريخ المصري العريق موضوعَ «قمبيز»و« كليوباترة» وكانت شخوص رواياته ملأى بالحياة والعواطف الإنسانية ، وظهرت فيها المرأة ذات سلطان على الرجال ، كما برزت مواقف البطولة رائعة . بحماساتها المتوقدة

* * *

حافظ ابراهيم و خليل مطران



حافظ ابراهيم

أما حافظ إبراهيم شاعر النيل [1] فقد كان بحق شاعراً اجتماعياً جعل شعره سجلاً للحوادث التي مرت بضفاف النيل ،

(١) ولد فى مصر سنة ١٨٧٢ وتوفى سنة ١٩٣٢

وأحس بشعور الشعب فارتبط شعره بأفراحه وأتراحه . وديوانه يَصْلُحُ أبداً أن يكون من الوثائق الاجتماعية للحوادث القوميّة بوادى النيل .

وهو بشعبيته كان ألْصَقَ بروح الأمة من «شوقى» وأعرق، لأنه خرج من صفوفها ولم يدخل غمارها من خارجها ، وساعده على أن يرى بعينٍ مجردة آلامَ الناس ، وأن يشهد مواقف بؤسهم ، أنه كان من المتألمين والبائسين ، وشعره فى هذه الفترة من عمره الذى اعتصرته الآلامُ هو خير ماجادَ به ، مما يصور نفسَه ويُظهرُ طابعه الفنّى على حقيقته ، ثم استغنى بعد حين ، وظلّ يقول الشعر فى قضايا الأمة ، وكان شعره من أسباب التمهيد للوحدة بين الشعوب العربية إذْ كان يبشّرُ بهذه الوحدة بكثير من قصائده ، وقد امتاز شعره بالرصانة وحسن السبك . فمنْ يعربياته التى أثرتْ عنه قصائدُه فى التغنّى بما بين مصر والشام ، منها هذه الأبيات [1] :

---

(١) وألقيت فى حفل أقيم فى ٢٥ من مارس سنة ١٩٠٨ بفندق شبرد بالقاهرة ، وجاء فيها بيته المشهور .

هذى يدى عنْ بنى مصرٍ تصافحكم فصافحوها تصافحْ نفسَها العربُ

وقد هب الجمهور المستمع يصافحه بأجمعه بعد إلقاء القصيدة .

لمصرَ أمْ لرُبوعِ الشامِ تَنْتَسِبُ
هنا العُلىٰ وهناكَ المَجْدُ والحَسَبُ
رُكْنانِ للضّادِ لا زالتْ رُبُوعُهما
قَلْبُ الهِلالِ عليهـــا خافِقٌ يَجِبُ
أمُّ اللغاتِ غداةَ الفَخْرِ أمُّهُما
وإنْ سَأَلْتَ عن الآباء فالعَرَبُ
إذا أَلَمّتْ بوادى النيلِ نازلةٌ
بَاتَتْ لها راسياتُ الشّامِ تَضْطَرِبُ
وإنْ دَعا فى ثَرى الأهرامِ ذو أَلَمٍ
أَجابَهُ فى ذُرَى لُبْنانَ مُنْتَحِبُ

لقد بقى حافظ إبراهيم حفيظاً على الفصحى ، وعاش عمرَه يُنافحُ عنها ، ويعود إليه وإلى معشره من أفذاذ الكتاب والشعراء ، الذين كوّنوا المرحلة الأولى والمتوسطة من ادبنا الحديث ، الحفاظُ على لغة العرب فى مصر وديار العروبة ، وكان أحمد شوقى يعترف لحافظ بهذه الميزة اللغوية ، فقال فى رثائه :

يا حافِظَ الفصْحى وحارسَ مَجْدها
وإمَامَ مَنْ نَجلَتَ مِنَ البُلَغَاءِ
جَدَّدْتَ أُسلوب «الوليد»[1] ولَفْظَهُ
وأتيتَ للدنيا بِسِحْرِ «الطائى»[2]

وكان فى حياة أدبه رمزاً لنهضة الشعر المتين فى العصر الحديث ، وبعد أن غبرتْ عهودُ الأدب العربي القديم ، وخلت دولة الأقلام منذ عهد أبى تمام حتى أعقاب القرن الماضى ، حين طلع الشاعر محمود سامي البارودى . وواتته ربة الشعر بإلهام يتنزل من العلاء ، فجمع بين التمكن من صحة الكلام العربي ، وبين قوة العاطفة والصوغ المتين ، ولم تفته الرنات الموسيقية فى شعره المبين ، وإن يكن خياله مستجيباً ، لكنه لم يبلغ من أجنحته ما بلغه زميله أحمد شوقى

كانت عاطفة الشاعر حافظ إبراهيم جياشة تنسكب على شعره كالسحر ، وكان يلقى شعره بنفسه ، فيقف بقدِّه القائم حافظاً شعرَه فيلقيه من غير رقعةٍ مكتوبة . وتجاوبت هذه العاطفة

(١) الوليد : هو البحترى
(٢) الطائى : هو أبو تمام

السخية مع روح الشعب العربي بمصر ، حتى وجد الشعب فيه شاعره الأول الذى عبّر عن خواطره فى الألم والفرحة ، وكانت مواقف حافظ إبراهيم فى الحياة الاجتماعية والسياسية مقرونةً بالحوادث ، فما تمس كيان الوطن بضفاف النيل وواديه نازلة حتى يهبّ حافظ لما يذكرها فى شعره منددًا بالاحتلال الإنكليزى والحكم الغاشم والاستبداد ، وقد حل حافظ في شعره بقلوب مواطنيه جميعاً فأسهم إلى حد بعيد فى إحداث الوعى الوطنى فى مصر والديار العربية ، وكانت نماذج من قصائده نجدها بين أيدينا فى المدارس التجهيزية فنرددها ، وهى تُشيع فى نفوسنا حماسة واعتزازاً ، ونحن في ديار الشام وفي مطالع الصبا أدركنا حافظاً فى دمشق يُلقى فى حفلٍ كبير قصيدته الكبرى التى يقول فى أولها :

حَيّا بكُورَ الحيَا أَرْباعَ لُبْنانِ

وطالَعَ اليُمْنُ مَنْ بالشام حَيّاني

أهْلَ الشآمِ لقد طَوَّقْتُمُ عُنُقى

بمِنَّةٍ خَرَجَتْ عن طَوْقِ تِبْياني

وفيها يقول داعياً للوحدة العربية الكبرى :

«النيلُ» وهو إلى «الأُرْدُنِّ» فى شَغَفٍ

يُهْدى إلى « بَرَدَى » أشواقَ وَلْهَانِ

وقد ماجَ القوم يومئذ من الحماسة والغبطة ، وملأ نفوسهم جذلاً ، أنْ ملأوا الأعين من شاعر العصر حافظ إبراهيم الذى كان شعره ديوان المجتمع العربى المتطلع إلى الحرِّية والعزة القومية .

* * *

وفى شعر حافظ قصائد جياشة بالشعور الوطنى وصف فيها أبطال النهضة التحررية فى أرض النيل، وبكى على من غُرب منهم، فكان من قوله فى البطل مصطفى كامل :

مدحتُكَ لما كنتَ حيًّا فلم أجِدْ

وإنى أُجيدُ اليومَ فيكَ المراثيا

وكُنّا قياماً حينما كُنْتَ ساهدًا

فأسهدْتنا حُزْناً وأمْسَيْتَ غافيا

شهيدَ العُلا ، لا زالَ صوتُكَ بيننا
يَرِنُّ كما قد كان بالأمس دَوِيا

خليل مطران

وأما شاعر القطرين خليل مطران ، فإنه حقق التجديد في الشعر بما أدخل عليه من المعانى المنتزعة من الأخيلة الفنية ومما اقتبسه من شعر الغربيين وثقافتهم ، إذ كان قد عرف الأدب الغربى فى مظانّه بفرنسة منذ جاء باريس وعاش فيها مدة من صدر حياته ، عرف فيها بعض أعضاء المجمع الأدبى الفرنسى ، وكان متمكناً من اللغة الفرنسية وآدابها ، وساعدته قريحة نَضّاحَة وموهبة خصبة ، فحاول فى شعره التجديد فى الاتجاه الفنى دون أن يتخلّى عن عمود الشعر وأصول العربية ، فتحرر إلى حد بعيد من الطوابع التقليدية فى تزويق الألفاظ ورصف الكلمات ، وأصبحت القصيدة لديه ذاتَ وَحْدَةٍ موضوعية وتجربة نفسية .

وظهر من تجديده فى الشعر تعبيره القصصى فى قصائده المطولة والوصفية التى حلّق فيها ، واستمد معانيها من جمال الطبيعة وهموم الإنسانية ، وما أروع شعر مطران فى قصيدته « نيرون » التى صور فيها حريق روما ، وأنحى باللائمة على قوم

لم يناهضوا الطاغية ، وكان الشاعر فيها يتصل بقومه ، ويحفز نَخْوَتَهُمْ ، للثورة على الضيم والطغيان فى بلادهم ـ وهذه أبيات من القصيدة المشهورة التى وصف فيها الحريق :



خليل مطران

فاز « نيرونُ » بأقصى ما اشتهى

مُحْرِقاً روما ليستبدعَ فِكْرا

شَبَّتِ النارُ بها ليلاً وقد رَقَدَتْ أُمَّتُها وَسْنَى وَسَكْرى

جمعت أقسام روما كلَّها فى جَحيمٍ تَصْهَرُ الأجسامَ صَهْراً

رُؤْيَةٌ أرْبَتْ على الرؤيا بما لم يَكُنْ يوماً بظَنٍّ لِيَمُرّا

وكان هؤلاء الشعراء الثلاثة « شوقى وحافظ ومطران » من بُناةِ الشعر العربى الحديث فى القرن العشرين ، فقد أعطوه رونقاً وتجديداً ، وسلموه إلى الأجيال الآتية التي توسعت فى التجديد وتاقت إلى الإبداع .

وقد عاش فى مصر من حمل بعد هؤلاء رسالة الشعر إلى جيل قادم ، ومن كانت ربة الشعر تلهمه ليحفظ التراث الخالد فنبغ « على محمود طه » صاحب ديوان « الملاح التائه » وكان شعره رصيناً فياضاً بالألوان الجديدة والثورات النفسية ، ولكن هذا الشاعر لم يُكمل عمله إذ مات وشيكاً ، فظلت بعدُ أنشودة « الجندول » التي أبدعها ، ترنُّ فى مسامع الزمن مصوَّرة من دنيا الغرب فتاة شقراء جميلة كان وصفُها الرائع الذى افتن فيه أجمل هدية منه إلى الشعر العربى الحديث .

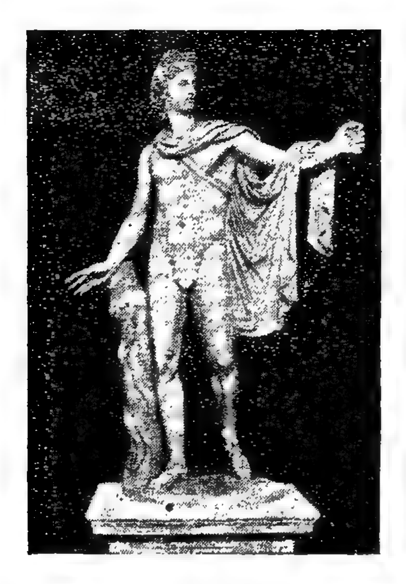
فى ظلال الأماسى الوارفة بذكرى هذا الشاعر يتموج فى الأثير قوله في تلك القصيدة — يصف الزوارق الليلية

الحالمة ، بمصابيحها الداكنة ، وهى تتأرجح على صفحات الشوارع المائية « بفينيسيا » :

أَيْنَ مِنْ عَيْنَيَّ هاتيكَ المجَالِي . يا عَروسَ البَحْرِ ياحُلْمَ الخيالِ

وكان ضريعه فى الشعر بعد شوقى ، « إبراهيم ناجى » ، وإنى لذاكر امسيةً معه راح ينشدنى فيها نماذج من شعره أدهشنى فيها حفظه وإلقاؤه وروعاتُ فنه . وكان يميل فى شعره إلى التحليل النفسى والغَوْص فى أغوار الحياة الإنسانية ، وديوانه « ماوراء الغمام » يحفظ ذكرى شاعر معاصر مرهف يُعَد فى رعيل المجدِّدين .





آبولـــو

جماعة آبوللو (١)

مبيت

تذكر فى تاريخ الأدب العربى الحديث جماعة «آبوللو» يعيش الدارس مع أفرادها سوانح حيّة يجد فيها النور مُطِلاً من سماء الإلهام ، وهم جماعة الـفوا ندوة لهم أطلقوا عليها هذا الاسم سنة ١٩٣٢ ، وكان مؤسسها الشاعر أحمد زكى أبو شادى ، ضمت نوابغ الشعراء الموهوبين من الشباب ، وقد رحب الشاعر أحمد شوقى بهم وافتتح مجلتهم بعددها الأول قائلاً :

«أبولّو» مرحباً بكِ يا «أبولّو»   فإنك من عُكاظَ الشِّعْرِ ظِلُّ
عُكاظُ وأنتِ للبلغاء سوقٌ   على جَنَباتها رَحلُوا وحَلُّوا
عَسَى تأتِينَنَا بمُعلّقاتٍ   نَروحُ على القديم بِها نُدِلُّ
لعلّ مواهباً خَفِيَتْ وضَاعَتْ   تُذاعُ على يَدَيْك وتُسْتَغلُّ

---

(١) نسبة لأبوللو إله الشعر والفن فى أساطير اليونان والرومان الأقدمين .

وعاشت مجلة « آبوللو » مدة تعطى العالم العربى أطايب أغذية الروح ، وضمت شعراء من المهجر الأمريكى فيهم إيليا أبو ماضى ورشيد أيوب ونسيب عريضة وفوزى المعلوف ، ثم انطفأت مصابيحُ هؤلاء الشعراء ، وتفرقوا تاركين أدَبَ العصر لمن جاء بعدهم من المُجَدِّدين والمبدعين .





ما كان لأدب العرب فى طور من أطواره، ولا فى زمن من أزمانه أن يعيش خلواً من سدنة هيكله ورعاة عهده، فإن شعراء شيوخاً في الجمهورية العربية المتحدة وفى لبنان والعراق وديار المغرب مازالوا حماة ذلك الهيكل، غير أن فريقاً من الشبان ظهرت مخايل نبوغهم مبكرة فأقبلوا بشعرهم ليصلوه بآثار سابقيهم، وكانت محاولات هؤلاء الشعراء المحدثين محمودة فى نشدانهم لتجديد لم يصيبوه حتى الآن، وانفلتت منهم معشر جاءوا بضرب من الشعر مموه جديداً . وحين ينظر فيه الناقد لايجد من جدته سوى تصفيف كلماته . فبديلا من وضع الشعر الموزون المقفى ووضع الأشطر فى الأبيات المتعاقبة، أخذ هؤلاء الشعراء يقسمون الشطر الواحد فى ثلاث كلمات تكون الواحدة خلف الأخرى .

أو يجيئون به غير موزون ولا مقفى ، فيكون ضرباً من النثر وليس كما يتوهمون . وقد شجعت هذه الحركة بعضُ الصحف والمجلات تبتغي شق الطريق أمام الناشئين . فكان أن حدث ارتباكٌ في أدب الفترة الأخيرة ، وحار الناس فيما يعاينون من شعر جديد .

فإذا قصد الشعر الجديد أن يبرأ من قيود التقليد ، فلا ينبغي له أن يَتَنَكَّرَ للوزن والموسيقى ، وإن كسر القوافي المتواترة لم يكن جديدا في عصرنا ، فقد عرفه الأندلسيون في الموشحات وغيرها ، وعرفه الشعراء المشارقة ،



أبو القاسم الشابي

وكان لابد للشعراء المحدثين من ثقافة عميقة ومعرفة باللغات الغربية ، وطويل ممارسة للغة العربية وتفهم لأسرارها وبيانها حتى

يتاح لهم أن يُلْهِموا التجديد وهو غير عزيز على الموهوبين .

لقد استبشر أدب العَرَب الحديثُ بشاعرين مثل فوزى المعلوف ، لم يلبثا أن أعتُبطا شابّين — فغرب نجماهما قبل الأوان ، أحدهما طلع فى المغرب وهو أبو القاسم الشابى[1] الذى صور فى شعره مظالم قومه في عهود الاستبداد والاستعمار ، وفتح أعين الشعب على الحرية ، فكان من قوله :

إذا الشعبُ يومًا أرادَ الحيَاةَ   فلا بُدَّ أن يَسْتَجِيبَ القَدَرْ
ولا بُدَّ لليل أن يَنْجلى   ولا بدَّ للقيد أن يَنْكَسِرْ

والشاعر الثانى ، شاعر فلسطين إبراهيم طوقان الذى خَلّفَ ديواناً من شعره صَوَّرَ فيه الروح الفلسطينية الثائرة على الصهيونية ، وكان شاعراً مرهف الأحاسيس حىّ الصُّوَرِ — توّاقاً إلى المجد اليَعْرُبى المنشود ، لكنه كان مشدودَ النظرة إلى الموت ، وسَرعان ما التقى به ، وترك بعده هذا الشعر ينوح عليه فى قوله . . .

---

(١) ولد بالشابية جنوب تونس سنة ١٩٠٩ وتوفى بتونس سنة ١٩٣٤ .

يَلَذُّ لي يا عَيْنُ أَنْ تَسْهَـــدى

وتَشتَرِى الصَّفْوَ بطِيب الـكَرٰى

لي رَقْدَةٌ طـــويلةٌ فى غدى

لله ما أَعْمَقَهـا فى الـثَّرٰى

أَلَمْ تَرَىْ طَيْرَ الصِّبا فى يدي

أَخْشَى مع الغَفـلَةِ أَنْ يَنْفِرا

طـالَ جَناحاهُ وقـد يَهتَدى

إلى أعالى دَوْحِـهِ مُبْــكِرا

وغَرَبَ نَجْما الشاعرين واحدٌ فى المشرق وآخر فى المغرب ، وظلّ شعرهما نَغَماً شروداً ، سجين الليالى ، متلألئاً بالأحـلام . لقد كانا مثـل سمفونيةٍ لمْ تتِمّ وقد وطّدا — نفسيهما لسفرةٍ قوميةٍ طويلة فى ظلال عهود مظلمة وتمّحيها الاستعمار بمياسمه الغاشمة .

ولعل مما يميز الشعر العربي الحديث نزعات طرات عليه . ولم تـكن هذه النزعات حتماً لزاماً لدى أصحابها ، وإنما كانت لهم قصائد تنحو نحوها فى قليل أو كثير ، ولم يختصّ بها شاعر عربى

معاصر وقف عندها لايريم ، وأول مابدر من هـذه الألوان الطارئة، النزعة الرمزية ، ظهرت أولَ أمرها بلبنان فى قصائد شعراء مجددين وقد أخذت فكرتها من الشاعر الفرنسى « شارل بودلير » وازّينتْ بعفاتن « فيرلين » شاعر الرمزية فى أواخر القرن التاسع عشر ،ولكن هذه النزعة وإنْ وَصلتْ إلى مصر فظهرت عند أفراد معدودين فما لبث أن ركدت فيها وكتب لها الكساد ، إذ أن الشعر العربى عاش منذ كان حتى اليوم ضاحياً مسايراً للطبيعة والحياة ، وطالما كان مجالُ التقدير فيه عند نقاده فى كل العصور منوطاً بما عند الشاعر من جزالةِ لفْظٍ وسلامةِ تعبير ووضوح موضوع ، وأما الكلام وراء العبارة فلم يعرفه — الشعر العربى إلا عند الذين كانوا يخشوْن بأس الحكام وطغيان الشعب الذى لم تصقله الثقافة والحرية ، كما صنع أبو العلاء المعرى وطائفة من الشعراء ، الذين أصفهم بأصحاب الأفكار الحرة ، وأكثرها كان فلسفياً ، وعند بعض الصوفية فى لغتهم الرمزية الخاصة ، أما أغلب الشعراء فكانوا يؤثرون الوضوح والوصول إلى القلوب والأسماع دون تعقيد أو إلغاز .

ولا يتوهمن أحد أن الرمزية فى الشعر هى التعمق فى المعانى وإدراك الروائع منها ، فإن الرمزية أشبه بالإيماء الذى يتحمل

تفسيره كثيرا من الوجوه . وقد يجيء بعضها تافها و بعضها وهماً ، أما تعمق المعاني فقد جاء به أفذاذ الشعر العربي القديم كابن الرومي وأبي تمام والمتنبي والمعري .

ولم يكن شوقي شاعر هذا العصر في بعض قصيده دون هؤلاء تعمقاً في المعاني وإثارة الخيال ، ولم يخلُ أكثر الشعر الحديث من الأغوار والتأمل البعيد .

لقد هبّت ريح التجديد على هذا الشعر في كل بلد عربي حسب نُضجه الفني وثقافته المحلية ، وظهرت تجاريب في التجديد متشابهة لم تخاص بعد إلى غاية مثلى ، وقد يمتاز بلد من بلد في هذا الموضوع حسبَ دواعي التعبير ، وإن تكن الفكرة الوطنية والانبعاث القومي قد عمت أكثر البلاد العربية ، ووجدت صداها فيما يقال من شعر الشيوخ والشباب كل يوم ، وانتفضت فيها عروبتها وأخذت تقيم بناء حياتها على حضارة لغتها وتاريخ أمجادها وروابط القومية فيها ، فكان الشعر صدى لهذه الانتفاضات الجديدة ، وبديهي أن تتدافع الآثار المتماثلة على الموضوع الواحد إن لم يكن ثمة غيره ، ففي زحمات الوعي الحديث بكل قطر عربي وقفت القضايا القومية وجهاً لوجه مع

الأدب ، إذْ لم تجد أقرب منه إليها وطالما كان هو المحتضنَ للحركات الثورية لدى كل الشعوب .

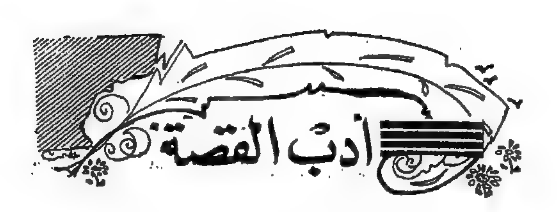
على أن الشعر الحديث فى مختلف مراحله وآفاقه لم يكن مقصوراً على لون واحد ، وإنما تناول أكثرُ الشعراء الأغراضَ المعروفة في الشعر القديم ، واقتصر الشباب منهم على ضربين مختلفين نفسيًّا عبروا فيه عما يخالجهم فى هذا الدور من عواطف الحب والميل إلى المرأة ، وقومياً اهتاجت فيه مشاعرهم فصوروها من خلال القصيد والمقطوعات .

ويلاحظ القارئ أن الشعر الحديث قد أثرت فى بعض ألوانه المذاهب الفكرية المعاصرة والاتجاهات السياسية ، ففى لبنان بقى الشعرُ على طبيعته بعكس صور الحياة والواقع بنجوةَ من الاتجاهات المتقلبة ، وقد ميزته الطوابع الغربية من سائر الشعر في غيره من البلاد العربية لشيوع الثقافة اللاتينية فى أهله .

وفى العراق وهو قديم عهد بالشعر المعاصر قد عاش فيه القصيد عربىّ النزعة والتعبير وإن لم يسلم من مضايقات الحكام على اختلاف الظروف والأجيال، حتى إذا اشتدت المنازع الأجنبية فى أدب العراق الجديث أخذ الشعرُ يتجاوب معها ، ويمثّل التيارات التى تتجاذبه من قريب ومن بعيد .

وفى المغرب والحجاز يتنازع الشعر عوامل القديم والحديث ، أما فى مصر والشام فإن الشعر المعاصر فيهما قد انشطر إلى شطرين ؛ محافظ على عمود الشعر ومساير لثقافة العصر لم يتأثر بالتطور إلا قليلًا منه — والشطر الثانى مندفع فى تجديد لم يستقر على حال ، وقد أنكر النقّاد طبيعةَ هذا الشعر الذي كاد يُعدّ نثراً لخلوّه من موسيقى اللفظ والوزن ، وأكثر الذين أغرام الشعر المطلق لم يحظوا بثقافة متينة يستطيع الموهوبون منهم أن يبدعوا فى الشعر .





أدب القصة

لئن كانت القصة تهدهد الأطفال فيغمضون على مساردها المغرية جفونهم الملائكية، فإنها أصبحت أداة لإيقاظ الشعوب وتثقيفها، وإمتاع النفوس بما فيها من تصوير صادق لحياتها واذواقها ، وتكاد تكون اليوم اروج فنون الأدب فى الشرق والغرب ، ولم يخل أدب العرب من فن القصة، فإنهم عرفوها منذ اقدم العصور فى صورة أساطير جاهلية ، ثم فى معارض من الأخبار والنوادر فى صدر الإسلام ، وظهرت لها معالم فنية فى العصر العباسى حين كتب بديع الزمان الهمذانى وأبو القاسم الحريرى قصصاً قصيرة سمياها المقامات وهى قصص كُتبت بأسلوب السجع وظهرت فيها الصناعة والتكلف بشكل بارز ، وكانت هذه الطريقة مجالا واسعاً لبراعة اللفظيين فى العصور السابقة ، غير أنها لم تكن تخلو من طرافة فى الموضوع وروعة فى الأداء ،

وكانت لها صفات الأقصوصة المعاصرة في عقدتها وحبكتها ومفاجآتها ، بل إن المقامات كانت دائرة من أجل المفاجأة فلم تكن مقامة عند الحريرى والهمذانى قد خلت من عنصر المفاجأة الذي يكون ختاما عجيبا .

وكان أبطال المقامات متكررين ، فأحدهم هو الذي يروى القصة والآخر يقوم بتمثيلها ، وقد تناولت نقد المجتمع العباسى فى صميمه ، وبخاصة حلقات القضاة والعلماء ، وفيها أوصاف كثيرة للبلاد برحلات كان يقوم بها أبطال تلك القصص ، وهى مزيج من نثر مسجّع ونظم مرصوص ، والغالب عليها ذلك النثر الذي كان يدل على براعة كاتبه فى الأداء والتعبير .

وكفى العرب فخاراً أن تنبع من عندهم قصص ألف ليلة وليلة والقَصص الشعبي (الفولكلور) كقصة عنترة بن شداد وتغريبة بنى هلال ، والزيرسالم وعلى الزيبق، ممايؤلف ملاحم فنية قصصية هى موضع إعجاب الغربيين ، وقد تناولوها بالدراسة والبحث وردّوها إلينا ، فإعيد نشرها على شكل جديد ، وأخذ بعض المعاصرين موضوعها على منهج علمى رصين .

ويحسب العرب فى عصرهم الحديث أن يكون فى أدبهم قصص فنى على نحو يقارب القَصص الغربى أو يسير إلي جانبه حينا

بعد حين ، وقد ظهرت فى مستهل نهضتنا الفكرية آثار كثيرة لموهوبين فى هذا الفن كان أشهرهم وأكثرهم انتاجا محمود تيمور الذى انطبع بالقصة بطوابع أخيه محمد الذى توفى فى فاتحة هذا العصر ، وكانت محاولاته القصصية فى القصة والمسرح بدءاً جديداً فى الأدب الحديث ، وقد ثابر أخوه محمود تيمور على معاناة فن القصة من بعده ، وظل يخرج للناس قصصا غزيراً حتى اليوم . . . وإذا حللنا قصص محمود تيمور وجدناها تتناول المجتمع العربى فى مصر في تصوير طبقاته ومايعترك فيها من حوادث الحب والبغضاء والمكايد ، وما أصاب الناس من الحرمان فى المدن والريف المصرى، وكان هذا القاص يُعنى بالقصص القصيرة ، ثم ظهرت له قصص مطوّلة وروايات تمثيلية تصور المجتمع وأخلاق الفرد ، وهو ذو عناية بإظهار قصصه فى حلل قشيبة بأسلوب مكين ، ومن قصصه المشهورة : مكتوب على الجبين ، والشيخ عفريت ، وشفاه غليظة ، وكان آخر ما أصدره منذ شهر قصص « تمر حنه عجب » و « إلى اللقاء أيها الحب » و « نبوت الخفير » و « أنا القاتل »

ونبغ فى أدبنا بفن القصة توفيق الحكيم منذ أصدر قصة « أهل الكهف » بأسلوب الحوار ، فعده الدكتور طه حسين أول

من أدخل فن الحوار على تاريخ الأدب العربى. وقد كتب طه حسين مقدمة الطبعة الأولى لقصة أهل الكهف، ومنحه السبق لأسلوب الحوار ، ورأيي أن أسلوب الحوار لم يكن فى تاريخ الأدب العربي الحديث من ابتكار توفيق الحكيم لأن الشاهد قائم على أن سابقه فيه هو الشاعر الناثر « ولى الدين يكن » فإن له فصولا كتبها بطريقة الحوار وكان فيها مضاهيا فى إجادته لهذا الفن جماعة من كبار الكتاب الأوروبيين القصصين كتبوا رواياتهم بأسلوب الحوار ، وتألق فن الحكيم ، فكان من خير ما جاء فيه بفن القصة : « يوميات نائب فى الأرياف » وقصة « الرباط المقدس » وهو يعد بحق قاصًّا من الطراز الأول ، كما ظهر مع هؤلاء كاتب للقصة موهوب هو الأستاذ « يحيى حقى » الذى سبق إلى النقد الأدبى فمارسه مخلصا ، وأبدع فى القصة فكان «قنديل أم هاشم » إحدى روائعه المشهورة ، وإلى جانب النخبة كان القصصيان حسن محمود وإبراهيم المصرى يقدمان آثارهما بصمت ودأب وإتقان .

ولم يخل أدب طه حسين وهيكل والمازني وأبى حديد من فن القصة وكانوا من الرواد فى هذا الفن وقد كتب العقاد « سارة » ثم غضّ عن فن القصة .

وظهر بعد هؤلاء السابقين فوج من القصصين اختلفت

أساليبهم و نظراتهم إلى الحياة وثقافتهم وقد تجاوبوا مع الزمن والمجتمع ، فطبعوا اقاصيصهم ورواياتهم بطوابع بيئاتهم و بلادهم ، واهتموا بالمسائل القومية ، فانعكس صداها فى اتجاههم ومذاهبهم وكان من ابرز هذا الفوج بمصر نجيب محفوظ الذي تفهّم روح الشعب ، وعكس صوره على رواياته السردية الممتعة ، وقصصه التى كتبها قبل الثورة و بعدها ، فانبسطت الشهرة فى هذا العهد ، ولقى التقدير والتكريم ، ولنجيب محفوظ أنداد وزملاء شاركوه فى تغذية هذا الفن بأحسن ما جادت مواهبهم ، منهم عبد الحميد السحار وثروت أباظة ويوسف إدريس ومحمود البدوى .

وفى العراق والشام لمعت أسماء في القصة والرواية ، تاريخية وفنية ،إقليمية وإنسانية من صميم الحياة ، بعضهم كانوا سباقين كجبران والنعيمة — ثم كرم مُلحِم كرم اللبنانيّين ، ومحمود احمد السيد العراقى ومعروف الارناؤوط صاحب الروايات التاريخية التى أشبهت الملاحم .

ومن أبرز القصصين بعد هؤلاء : فؤاد الشايب وسهيل إدريس وجبران خليل جبران ونجاتى صدقى ووداد سكاكينى وعبد السلام العجيلى .

وقد هب كثير من الشبان فى العالم العربي للقصة القصيرة ،

فكتبوها وانصرفوا إليها حتى صارت القصة تجربة وديدنا لكل متأدب ، ولو كان بادئاً أو ناشئا . وشجعت الصحافة والمجلات الأسبوعية والشهرية ادباء القصة حتى صار لكل صحيفة كتّاب قصص ، ومتى كثر العرض قل الطلب ، إذ يظل هذا القانون الإقتصادي ذا تأثير حتى فى عالم الأدب ، وثمة قانون اقتصادى آخر دخل ساحة الأدب واحتلها متوسعاً نشطاً ، وكانت سوقه فى المجال المالى أشبه بأعمال (البورصة) لكنه فى أيامنا وجد سبيلا إلى سوق الأفكار التى ظهرت فيها الآداب الهادمة والآثار الرخيصة فى قصص المراهقة وروايات الإثارة الجنسية والبوليسية وغيرها مما يغرى بالشر والتقليد ، وكان الأولى بالكتاب ، الذين استشرى أمرهم واستفحل ضررهم الروحى فى تنشئة الجيل على التخنث والانحراف ، ان يتفهموا هدف الثورة وما تريده فى بناء المجتمع الجديد فيسهموا فى البناء بديلّ اندفاعهم بما يضمن لهم الكسب المادي دون أن يأبهوا المصلحة العامة والسمو بالفن والتفكير ، فإن أمتنا العربية تعيش اليوم فى مفترق الطرق ، وقد كان الاستعمار مُلْقياً عليها ظلاله بالأمس بما فرّق شملها ، وأضعف كلمتها ، وشغلها عن النضال بالحزازات والمآرب الحزبية والفردية ، وإن تكاليف العهد الحديث فى الوحدة والقومية

والتحرر من كل ما يعوق النهضة المرجوّة والتعاون الاشتراكى المنشود. كل هذه الهموم النبيلة ـ تطالب الأدباء والشعراء والقصاصين بأن يجنّدوا مواهبهم فى سبيل وعي جديد ويوم عربى كبير .

ولعل هذه الغمرة تتكشف فيطلع علينا فى النصف الثانى من القرن العشرين أدب أفضل له صفات الإبداع وروعة الفن وصدق التعبير .





الأدب المسرحى

من مظاهر الأدب العربي الحديث الروايات التمثيلية ، ولقد كان التمثيل من أرقى آداب الأمم عرفه اليونان الأقدمون والرومان على طراز خالد ، فسارت آداب الأمم الغربية فى حضارتها تحدوها الآثار المسرحية ، حتى صارت الحياة الأوروبية والأمريكية تقتضى السخاء من أجلها — وتدخر فى ميزان نفقاتها الشهرية مالاً مرصوداً لمشاهدة التمثيليات ، كما ترصد الإنفاق لغذاء الجسم ، ومطالب المعيشة .

أما العرب فلم يألفوا هذا الفن ، فى جاهليتهم وإسلامهم ، ولا فى عصورهم المتحضرة زمن العباسيين والأندلسيين ، وإن يكونوا قد مارسوا نوعا من القصص الذى يصلح للتمثيل كمقامات الحريرى والهمذانى .

وجاء عصرنا الحديث فكانت منه البادرة الجديدة فى فن

التمثيل ، وقد اقتبسه العـرب المعاصرون عن الغربيين بعد الاحتـكاك بآثارهم فيه . وكان الحدَث البـكر فى هذا الأدب هو القصة التمثيلية التى مـثـّلت بمصر عام ١٨٦٩ احتفالا بافتتاح قناة السويس ثم أنشئت دار الأوبرا بالقاهرة سنة ١٨٧١ ، وأخذ الأدب المسرحى يرقى فى مصر ، حتى ترجم الشاعر الشيخ نجيب الحداد رواية « روميو وجوليت » ومثلها في شـكل « أوبريت » نابغة الفن المشهور « سلامه حجازى » ، وكان لبنان قد أطلع « مارون النقاش » وأخاه « سليما » فسبقا إلى أدب التمثيل بالتأليف والمراس ، كما خرج من دمشق بهذا الفن « ابو خليل القبانى » فجاء مصر واتخذها دار مُقام لمحاولاته ، فـكان يؤلف القصة نثراً وشعراً بالعربية الفصحى ، ويقوم بتمثيلها ، ويتخذ لتمثيل أدوار المرأة منْ معه من الشبان الممثلين يظهرون على المسرح فى زىّ النساء ، ولم يكن مألوفاً ظهورهن ، وكان « أبو خليل » يغنى بعض أشعار الرواية بصوته الجميل ، حتى عد أولَ دمشقى جاء مصر بفنه هرباً من جور التقاليد .

وظل الأدب المسرحى يمشى وئيداً حتى جاء الشاعر « أحمد شوقى » فـكتب له مسرحياته السبع وبها أظهر الشاعر تجديده في الأدب والشعر الحديث ، وقد تناوله النقد الفنى ، فقيل

فى آثاره هذه : إنها تصلح للغناء وتفتقد روحها التمثيلية الحقيقية . ودافع عن فنها نقاد قالوا : إنها فنية ورائعة على أن النظارة والجمهور استساغوا فن شوقى المسرحي وعدّوه موفقا فى تجديده وأدائه .

ثم تلا شوقيا الشاعر والمؤلف المسرحى عزيز اباظة برواياته التمثيلية الجديدة التى امتازت بأسلوبها العربى المكين وانها المحبب ، وقد أقبل الجمهور على مشاهدتها فراى فيها انبعاثا لمجد الأندلس والتاريخ العربى بمصر وغيرها ، ومن أشهر تمثيلياته « غروب الأندلس » و « قيس ولبنى » و « شجرة الدر » وكان آخر مسرحياته « أوراق الخريف » سنة ١٩٥٩ وقد جعل موضوعها معاصراً ، ثم ثنى عليها بمسرحيته « قافلة النور » و « قيصر » .

وما زال أدب المسرح فى عصرنا الحديث موضوع الجدل والنقاش حول ألوانه ولهجاته ومعاهده ، محتاجاً إلى التألق والتطور ، فإن ما سطع من نجومه فى التأليف والتمثيل والسينما لا يزال بالمرحلة الأولى من طريق مجده العتيد .

وستزداد العناية بالحياة المسرحية فى العالم العربى ، لما لهذا الفن من أثر بعيد فى وعي الشعوب وثقافتها ، فأدب المسرح الآن

سيكتب له الازدهار فى النصف الآخر من عصرنا ، وسيكون لأدباء المسرح ونقاده المكانة المرموقة في أدبنا الحديث .

* * *

ملامح التطوّر فى أدبنا المعاصر

لقد أصبحت قضية التطور فى العلوم عنوانا بارزاً فى دراستها منذ أعلنها فى آفاق العلم العالم البحاثة « كلود بيرنار » فى القرن الماضى ، وحين هبت حركات النقد في تلك البرهة بأوربا اتخذ النقاد يوم ذلك موقفاً مماثلا من أجل الأدب ، فأدخلوا فكرة التطور عليه ، وقالوا إذا : كان الإنسان يخضع للتطور فكذلك آثاره ينبغى أن تخضع لهذا العامل الكبير فى الحياة ، وأخذ النقاد منذ ذلك العهد يتناولون آثار الفكر الإنسانى على أنها يمكن أن تولد وتلد وتنمو وتتحول ، وقد يكون تحولها إلى الأعلى أو إلى الأدنى ، وعلى ذلك درج الناقدان « برونتير » و« تين » ثم « لانسون » حين تكلموا على النثر والتطور

الذى خضع له خلال حياته منذ مولده حتى عصر هؤلاء .

على أنى لا أجد ضيراً فى دراستنا الأدبية المعاصرة من أن نأخذ المقاييس العلمية التطورية لنطبقها على أدبنا العربى ، وتتدارس مراحل التطور فيه دراسة علمية منظمة قد يتناولها الإحصاء على جفافه العلمى ، ولكن يخرج منها بنتائج مقبولة تدعو الأدب ليستفيد من العلوم .

ولقد خضع أدبنا العربى للتطور في مراحل قديمة وفي مراحل متوسطة ومعاصرة .

أما تطوره القديم فإنه قد حدث فى حياته الفكرية والفنية بعد الإسلام ، منذ اتصل العرب بالآفاق الجديدة من دنيا فارس والروم ، وكان العصر الأموى ساحة الاحتكاك الأعلى والممارسة البدائية لالتقائه بالفكر الفارسى والرومي ، ولم يكد يطل العصر العباسى حتى كان ذلك الاحتكاك على مدى أبعد ، وبخاصة مع اليونان . ولما جاء عصر الخليفة المأمون بدت هذه الظاهرة التطورية واضحة فى الفكر العربى حين أمر هذا الخليفة البانى بترجمة الآثار الفلسفية والمقولات اليونانية العقلية إلى اللغة العربية ، وقد كانت نهضة رائعة من المأمون أدخل فيها آثاراً عقلية

إلى حياة العرب بدا محصولها فى خلال العصور التى عاشها العرب حتى يومنا هذا .

غير أن الأدب لم يفد فائدة جلى من تلك الترجمات الحديثة التى كانت منذ عصر المأمون وما تبعه من العصور ، لانصراف العرب عن الأدب الأجنبي إلى الثقافة الأجنبية ، وقد قام بعض العلماء والأدباء بمن عرفوا اللغة اليونانية فى العصر الأول والثانى للعهد العباسى بترجمات محدودة لنبذ من الآداب الإغريقية كأشعار «هوميروس» وقد كان «تيوفيل الرّهاوى» الذى عاش فى عصر الخليفة العباسى الهادى قد نقل الإلياذة من اليونانية إلى السريانية،ولما جاء « الشهرستانى » « وهو متأخر فى عصره فكتب فى الفلسفة وللمذاهب الاعتقادية كتابه « الملل والنّحل » ذكر « هوميروس » وبعض أشعاره علي أنها جوامع كلم في الحكمة ومضرب المثل .

وظلّ الأدب العربى محروماً التأثّر بالأداب اليونانية والفارسية إلا فى النادر القليل مما أدخله الشعراء العرب الذين كانوا من أصل فارسى من الصور والأخيلة والأوصاف التي لاعهد للفكر العربى بها ، كما صنع بشار بن برد وابو نواس ومهيار الديلمى .

ولكن الأدب ذاته في كامل هيكله لم يخضع لهزات كبرى تغير مجراه، فظل تطوره بطيئا خلال العصور العربية مزدهرة ومتخلفة ، حتى أتى عصرنا الحاضر فدخلت عليه ثقافات الغرب الجديدة وهزته هزة عنيفة ، فإذا التطور يبدو فيه ملحوظاً ، وأكبر دليل على ذلك ولادة أدب القصة فيه ونمو هذا الأدب واطراده حتى اليوم فى مباهج آثاره عند أدباء القصة وكتابها المعاصرين فى الديار العربية . ويستطيع الدارس المتتبع أن يجد آثار التطور فى أدب القصة نفسه عند كتابها ، فإن لبعضهم تأثراً بالقصصيين الفرنسيين ، فانت إذا قرأته وجدته يعالج قضايا الشعب فى قصصه ، وتمثلت آثار « إميل زولا » و « تورغنيف » و « دوستويفسكى » وغيره وتجد آثار « غى دوموبسان » عند كتاب القصة القصيرة ، وإن مجال المقارنة والمشابهة مُفتتح الأبواب أمام النقاد الحاذقين ليردوا أدب قصصنا المعاصرة إلى أساتذته الذين كانوا رُواداً سابقين ، وهذه ظاهرة فى تاريخ أدب القصة العربية وتطورها لا يمكن نكرانها ، إذ لابد من عوامل التمازج الثقافى بين عقول الأمم لينتج عباقرتها آثارهم وروائعهم ، وما من اثر يولد من العَدَم بغير مؤثر .

وإذا كان ادب القصة وفن الرواية الذهنية والمسرحيّة

قد تأثر بالآثار الغربية ،وكان مثلا من امثلة التطور وشواهدها في أدبنا الحديث فإن الشعر لم يخضع بعد للتطور السريع الذى يريده الشبان المتأدبون وقد قامت عوامل شديدة العثار والعوائق بين تطور الشعر العربى المعاصر وأسباب التطور ، وأشد هذه العثرات وَحْدَة القافية فى الشعر العربى ، فليس فى أدب الأمم شعر يسير على قافية واحدة مثل الشعر العربى .

وقد فكرت فى وحدة القافية العربية وقلّبت أوجهَ النظر لتعليل وجودها ، وراقنى أن أعلل شكلها بشكل البيداء العربية نفسها ، فإن اطراد الصحراء المَيْثاء[1] المنبسطة،وامتداد ساحة منها وراء ساحة أمر يماثل كل المماثلة تسردّ القصيدة العربية الجاهلية .

فإن القصيدة ذات الخمسين بيتا على بحر واحد ونظام مماثل وقافية واحدة هى صحراء فنية للفكر العربي الجاهلى ، صحراء ممرعة تنبت الصور ، ويسودها الخيال الخلاّق ، [و]هى إلى ذلك تسير على حُداء الإبل بتلاحينها الناغمة التي هى الموسيقى الفنية لسحر اللفظ ، ووزن البحر ، وترادف القوافي ، وعلى هذا تمثلت القصيدة الجاهلية قطعة من حياة الجاهليين أنفسهم .

(١) السهلة المنبسطة بدون رمل .

وقد ورثها عنهم العصر الأموى ، ثم العصر العباسى والأندلسى ، وجاء عصرنا فوجدنا هذا التراث الكبير من قصائدنا العربية ، ودواويننا التى لا تحصى فى شرق الأرض ومغربها ، زاخرة بالقصائد ذوات القافية الواحدة المسرّدةِ العديدة .

وقد مارس الأندلسيون التخلص من القافية الواحدة فى الشعر العربي ، فأبدعوا الموشحات . كما حاول شعراء المهجر الأمريكي وفى مقدمتهم فوزى المعلوف كتابة شعر مطلق فى قواف متبدلة ، وجاء بعده شعراء فى الديار العربية قاموا بمحاولات لم تجْدِ نفعاً ، وإنما أساءت إلى شعر العرب فى صميم روحه وفنه، لأنه يقوم من قوافيه على الموسيقى واللحن المرادف ، وكل إعلال لهذه الفنون يدخل الضَّيْمَ عليها. وهبَّ جماعة من شعراء الشباب منذ عهد قريب بضروب من القول سَمّوْها شعراً مرسلاً او نثراً شعريا ، وما هى من ذلك فى شىء ، ولا تزال المحاولات دائبة دون أن يصل الشاعر إلى انطلاق القوافى . وأرى أن مردَّ التعلق بالقصيدة ذات القوافى الواحدة بالروى الواحد أمر أصبح مألوفا ، وقد سلسلته العصور العربية الفنية فأصبح من الصعب كسر القافية وتحطيمها ، لأن فى تحطيمها إساءة إلى اللحن الموسيقى الناغم ، الذى هو سر السحر فى النظم العربي — ولئن كان شيوخ

الأدب ونقاده قد تجهموا لهذه الألوان الجديدة من الشعر المطلق الحديث فإن نفرا من الشعراء النوابغ ماضون فى محاولاتهم الفنية، دون أن يعبأوا بالقيود والتقاليد ، وقد رأينا لبعضهم دواوين وسمعنا منهم شعرهم الذى تعوزه الموسيقى، ولولا إلقاؤهم الذى يضفى على هذا ما يغرى بسماعه ، لما وجدنا فيه جديداً — وسهولة هذه المحاولة أغرت الكثير من المتأدبين بتقليد المجددين .

وأما النثر فقد تطور وتجدد ، وقد عرضنا إلى قضية النثر عند الكلام عليه فى هذا الكتاب بما يغنى ههنا عن بحثه وإعادته.





منذ اتصل الشرق بالغرب عن طريق النقل والترجمة لأدبه وثقافتـــه ، أو عن طريق الأجانب الذين وفدوا على العالم العربي باسم العلم والأدب ، أخـــذ التطور سبيله إلى أدب العرَب ، ففي مطلع القرن الحاضر ازدادت حركة الترجمة من الفرنسية والإنكليزية إلى العربيـــة ، واخذت أداة التعبير تتحرر من قيود الأسجاع والتنطع في الألفاظ ، ففي لبنان نشط تعريب الروايات والمقالات ، وفي معاهده الأجنبية اتسع تعليم لغاتها لأبناء البلاد وبناتها ، وقامت الجامعة الأمريكية ببيروت إبان تاسيسها وبعده بتدريس الطب والعلوم باللغة العربية ثم بالانكليزية ، فكانت لها مشاركة بالترجمة والنقل من اللغتين وإليهما في كتب التدريس والمحاضرة .

وفى مصر تغيرت الأذواق والأساليب فى ترجمة الآداب الغربية بعد السابقين إلى الاتصال بالغرب وفى إتقانهم لغاته ، كرفاعة الطهطاوى الأزهرى الذي نقل للعربية فى وقت مبكر صوراً عديدة من حياة الغرب، واطلع قومهُ على أسباب الوعى الفكرى ، وقد قام هو وتلاميذه بالترجمة من الفرنسية إلي العربية والتركية فى موضوعات شتى ، وأهمها ما يتعلق بالمصطلحات العلمية والفنية ، وغير هؤلاء كثير ممن نقلوا إلى العربية كتباً كثيرة ، ولولا حركة الترجمة التى دبت فى مستهل نهضتنا المعاصرة فنقلت إلى أدبنا روائع الفكر الغربى ، فى مناهج النقد والفلسفة وألوان القصة والمسرحية ، لبقى أدبنا متخلفاً منطويا على نفسه، وبعيداً عن طبيعته فى التطور والتجدد ، فأخذ السباقون إلى ثقافة الغرب من أدبائنا، وبخاصة فى مصر ولبنان ، ينقلون إلى العربية اجمل ما كتب ادباء الغرب وشعراؤه ، ولا يمكن تحديد الأثر الذى تركه الاتصال بالفكر الغربى فى أدبنا المعاصر ، سواء فيما نقل عنه ، أو فيما تأثر به الذين تثقفوا ثقافةً اجنبية من شعراء العرب وكتابهم ، كبارا وصغاراً .

ولم يكن النقل مقصوراً على لغة واحدة بل اتسع وتعدد ، وكان التعريب والترجمة للعربية من شتى اللغات الأجنبية فى آفاق

العلم والأدب ، وفى الحياة الفنية والاجتماعية ، حتى انعكس تاثير الغرب فى كثير من آثار أدبائنا وطرائق بحثهم وأدائهم ، وفى مجال الدراسات الجامعية ومناهجها الموضوعية .

فالتطور إذن من طريق الترجمة والنقل إلى العربية كان ملحوظا قوياً ، وضرورة محتومة ، لأن احتكاك الشعوب والحضارات،وتمازج الأفكار والثقافات امر مرافق لكل وعى ونهضة مهما يكن شكلهما .

ولا ينسى أحد ما كان لفضل الترجمة فى عصر المأمون ومن جاء بعده ، على أن الوضع لم يختلف فى حاجة عصرنا إلى النقل الغربى والثقافة الأجنبية .

ولم تكن الترجمة والنقل عند العرب من طرف واحد ، فقد كان فى تاريخهم المجيد بالأندلس ، وفى القرون الوسطى بالشرق ، ما نقل عن حضارتهم الفكرية والعمرانية إلى الغرب وكان اساسا لنهضته الأخيرة ، ولو أحصينا ما اقتبس الغربيون من العرب فى الطب والكيمياء والنجوم مما ذكره مؤرخو العلوم عن العرب . « كسارتون » وغيره لما بلغه الإحصاء .

فإذا تأثر أدبنا المعاصر بفكر الغرب فإن ذلك من طبيعة الأشياء ، ولا نزعم بأن الترجمات والتعريب جميعا كان سلبيا

من المآخذ مضمون الفائدة ، فقد كان فيه الغث والسمين،والنافع والمدسوس ، ولا ينبغي أن نفتر مهما تتسّع حضاراتنا الفكرية عن حركة الترجمة والنقل .

وإن حياتنا القومية والعلمية الحديثة تقتضينا أيضا أن نقوم بترجمة بعض آثارنا الفكرية إلى اللغات الأجنبية ليطلع عليها الغرب،ويعلم مدى تطورنا ومقدار نصيبنا من التقدم والتجديد .



تحقيق المخطوطات

كانت الأمة العربية ، وماتزال ، من أحفل الأمم بآثارها المخطوطة . ولو أحصينا مافي دور الكتب الوطنية فى الغرب والشرق من عديد المخطوطات العربية لما استطعنا أن نأتى لها على حصر وتكرار فى نسخها المتعددة . وقد كان الفضل بادئ الأمر فى نشر المخطوطات العربية لطائفة من المستشرقين بدءوا أعمالهم فيها منذ أواسط القرن الثامن عشر ، على أن بعضاً من هؤلاء عرفوا هذه الآثار العربية المكتوبة قبل ذلك ، وقد طبعت كتب عربية كثيرة من تراث القدامى فى مطابع غربية أشهرها مطبعة «ليدن» بهولاندة، ووقف على تلك الطبعات الثقات من المستشرقين فشرحوها وعلقوا عليها .

ومنذ بدء النهضة العربية الحديثة تنبه العرب إلى نشر تراثهم المخطوط والدفين ، فكانت بعد ذلك هذه العناية بنشر المخطوطات في دمشق ومصر والعراق ولبنان .

وقد عُنِيَ جماعة من العلماء فى هذه الأقطار بتحقيق المخطوطات ونشرها ، وأخذ بعضهم طرائق هذا النشر عن الغربيين المنهجيين، فأخرجت المطابع العربية عديدا من هذه الكتب التى كانت حبيسة كنوزها المهملة .

غير أن نشر المخطوطات وإن كان باعثا للثقافة العابرة يضم التراث الفكرى إلى ثقافة العرب المعاصرة ، فإن من المخطوطات التى نشرت فى البلاد العربية فى المدة الأخيرة ماليس له فائدة ترجى ولا أثر مرتقب فى عصرنا ، وإذن لم يكن النشر مسدد الخطة من أجل هدف علمى وقومى . وإنما كان أغلبه فى موضوعات لايرجع إليها إلا القليل وفيها مالا يفيد إلا الدواوين النادرة والكتب العلمية ، كمخطوطات ابن سينا وآثار السلف المحققة فى التاريخ والفلسفة والأدب .

وكيف وقع هذا الأمر فإن حركة النشر للمخطوطات وتحقيقها كانت من المظاهر العلمية والقومية فى عصرنا الحديث ، وهى تدل دلالة واضحة على وصل حاضرنا بماضينا فى مجالات

الفكر والأدب والعُروبة ، وقد كان للجامعة العربية مشاركة كبيرة فى جمع التراث والبحث عن نفائسه وكنوزه فى البلاد العربية والأجنبية ، وإنشاء معهد للمخطوطات بالقاهرة يرعاها ويشرف على نشرها .

وقد سـاير هذا النشر المتتابع حركة التطور الحديث فى الوعى وبناء المجتمع الجديد على ذخائر ماضية فى الفكر والمآثر والبطولات .



اللغة العربية في عصرنا

من اجل حياة اللغة العربية في هذا العصر أجد من دواعى الاقتداء فى دعم اللغة وصون عبقريتها ؛ أن أذكر لقرائى ما تقوم به دار النشر لمعجم « بيرلاروس » بباريس من إعداد لطبعة جديدة من هذا المعجم الكبير الذى يصدر فى عشر مجلدات باسم « معلمة القرن العشرين » وقد عهدت إدارة النشر إلى ثقات العلماء والأدباء والكتاب ليسهموا فى المعجم العتيد ، وقد كتب الأديب العظيم « جورج ديهامل » في هذا المعجم مادة (تاريخ الأكاديمية) فالمّ فى مقاله بمراحل الدعامات اللغوية والمعاجم الخاصة بلغة قومه ، وما بذل العلماء من اجل اللغة خلال العصور منذ تاسيس المجمع اللغوى

الفرنسي سنة ١٦٣٥ أيام الملك لويس الثالث عشر حتى أواسط القرن العشرين .

وأتساءل اليوم عن حياة لغتنا العربية فى عصرنا : ماذا أعددنا لها من رعاية وحماية ؟ . فأجد المجمع اللغوى بالقاهرة لا يألو جهداً فى صون الفصحى والعمل على تجاوبها مع مطالب العصر الحديث ، وقد قام حتى الآن بنشر معجم تفسيرى لألفاظ القرآن الكريم بلغ فيه إلى كلمة (ذاع) وكان من حظ لغتنا السمحة أن يرفدها القرآن فيظل حارسها على الآباد . وقد كان من دعامات اللغة منذ سنة ١٩٢٠ المجمع العلمى العربى بدمشق ثم مجمع اللغة العربية فى القاهرة ، وفى العراق اسس المجمع العلمى العراقى منذ سنوات بعيدة ، وقد هبت فى زماننا مطالب لغوية دعا إليها التطور الاجتماعى والثقافى للأمة العربية الحاضرة ، من هذه الدواعى تسهيل اللغة على الدارسين ، فنجمت آراء فى محاولات لتيسير النحو والصرف وتيسير الكتابة العربية باختصار حروفها ، وما تزال هذه الآراء حتى الآن موضع بحث واختبار ، وقد دأب المجمعان العربيان السورى والمصري فى إصدار مجلتهما ، شهرية وسنوية ، وهما حافلتان بمواضيع نافعة فى اللغة ودراستها وفى تحقيق المخطوطات .

وإن فى وجود المجامع اللغوية أقوى سند لقضية اللغة ، فالمجامع هى الديدبان على صونها والمعين على بقائها ، بل هى المسئولة عن تراث الفكر والبيان فيما ترك الأوائل من ذخائر العربية وآدابها .

وقد كان ماصنعه علماء اللسان العربى في غابر العصور من أجل لغة العرب امراً يعدُّ فى حدود الإعجاز ، فقد قدموا لهذه اللغة معاجم ضافية روقوا فيها ألفاظ العربية وأعطوها معانيها الصحيحه ، وبذلوا فى جمعها من أفواه العرب في البادية والأمصار أعمارهم وجهودهم .

وحين جاء بعدهم علماء التدوين دونوها وصنفوها، وعقدوا من أجلها المجالس في دورالعلم والمساجد الجامعة ، وألفوا الكتب فى دراستها فعنوا بمترادفها ومناظرها ، ووضعوا لكل لفظ معنى فى الاستعمال والاشتقاق ، حتى كانت معاجمهم التى صدرت عن كتاب « العين » للخليل بن أحمد الفراهيدى أعجوبة التصنيف اللغوي فى معاجم الأمم .

إن تراثنا اللغوى كبير وحافل ، وإننا في عصرنا هذا لنسدى الشكر عميقاً لأولئك الأعلام الذين منحونا معاجمنا وكتب لغتنا صحيحةً نقيةً خالدةً تصلح أن تواكب أمتنا

فى اعمارها المستمرة ، غير أنهم لم يفطنوا — وليس هذا عيبا فيهم — إلى وضع معجم تطوُّرى للغة العربية على نحو ماترى في معاجم الأمم التى رقيت لغاتها ، فإن معجم الألفاظ الزمنية مازال ينقص حياة لغتنا العربية ، ولو أن أديباً معاصراً فى ديار الغرب شاء أن يرى إلى معنى كلمة (Midi) مثلا وهى اسم لوقت الظهر ، لاستطاع بمعجم من معاجم حياة الألفاظ في لغته أن يعرف معنى هذه الكلمة فى العصور الوسطي ، وكيف كان يستعملها الأدباء خلال العصور التابعة ، وما دخل عليها من التطور فى عصرنا هذا .

وقد شهدت هذه الكلمة فى عصرنا تطوراً جديداه إذ اقترح الكاتب « جاك دولاكروتيل » إدخال كلمة (Midinette) إلى معجم اللغة الفرنسية ، وكان اقتراحه هذا فى خطبة استقباله بالأكاديمية الفرنسية ، وهذه اللفظة أصبحت اليوم علماً على الفتيات اللواتى يشتغلن فى بيع الحاجات بالمخازن الكبرى ، فإذا حان وقت الظهر خرجت « الظُّهْريات » إلى استجامة لمن يتناولن فيها طعام الغذاء . وقد تقبَّل معجم اللغة الفرنسية هذه الكلمة التى خلقها التطور ، وأصبحت من صميم اللغة .

ضربت هذا المثل لكي أدل على وجود تطور اللغة ، وكيف

يمكن ان تستفيد لُغتنا العربيةُ من معجم لألفاظها الزمنية ، فمن يدري — غير المتتبعين والباحثين وراء الألفاظ وحياتها — مامعنى فعل (وسَمَ) في العصر الأندلسي الثامن ، لقدكان معناها فى الجاهلية « كوَى » البعير بميسم أى أحدث فيه علامة بحديدة كاوية تحمل إشارة ، وتلك الحديدة كانت تسمى فى لغة الجاهلية « الميسَم » ثم تطورت هذه اللغة وتطور فعلها ، حتى عدت كلمة (الوَسامة) فى عصرنا تدل على الملاحة والجمال .

إننى أطالب المجامع اللغوية فى القاهرة والشام وبغداد بان يكون للغة العرب فى هذا العصر معجم زمنى لألفاظ اللغة ، يدل على تطور كل لفظ فيها واستعماله خلال العصور ، ولا بد للوصول إلى هذا المعجم من عمـــل شاق دائب فى استقراء كلام العرب فى الجاهلية والإسلام وفى العصور المختلفة حتى يومنا هذا . ولا اشك فى أن الأدباء والشعراء حسب عصورهم هم الذين ينبغي ان نسالهم عن استعمال تلك الألفاظ التطورية ، إذ كان كل منهم يستعمل اللفظ وفاقاً لمعناه فى عصره .

كما يعوزنا فى زماننا هذا من اجل حياة لغتنا ودوام معرفتها وضع معجم للمرادف والمتشابه على نحو مانجد من معاجم الأمم

فى هذا الشأن ، وكل هذه الأمور تعد روافد لحياة اللغة العربية فى القرن العشرين .

وقد كان من مآثر مجمع اللغة العربية فى القاهرة وضعه (المعجم الكبير) وقد صدر منه جزء فى ٥١٩ صفحة مع فهارسه التي عملها للشعراء والشعر وشطور الأبيات الواردة فى نصوص الشواهد ، وهذا الجزء من مادة الهمزة إلى أخي وفيه قدم وحدوث فى شرح الألفاظ ، وقد اتخذ فى صدر الكثير من مواده رد اللفظ إلى لغة قديمة سامية أو آرية ، وكان طبع هذا الجزء سنة ١٩٥٦ .

على أن مجمع اللغة العربية فى القاهرة قد نهض أيضاً بتصنيف معجم للغة العربية سماه (الوسيط) يجىء فى جزأين فى ٥٥٤ صفحة كتب مقدمته الدكتور ابراهيم مدكور وهو في عشرين ألف مادة وفي نحو ألف ألف كلمة ، وفيه صور مبينة على نحو المعاجم الغربية وقد خطا مصنفوه خطوة معاصرة ، فوضعوا فيه ما تجدد من الألفاظ فى القرن العشرين بجانب الألفاظ القديمة منذ الجاهلية وصدر الإسلام. كما ضم هذا المعجم الألفاظ الحديثة فى المصطلحات العلمية ، كما صنع المجمع اللغوى فى القاهرة « معجم

ألفاظ القرآن الكريم » وقد صدر منه جزءان حتى مادة (ز ى ع) .

إن في لغتنا العربية ألفاظا تركت وأهملت ، ولم يبق من داع لاستعمالها فى عصرنا ؛ كالألفاظ التى تتعلق بالبادية وحياة الإبل ، فمن منا يستطيع اليوم وهو في نطاق المدينة الحديثة وتأخذه الحضارة من كل جانب أن يستمر فى استعمال كلمة « الرَّحْل » وهو مايوضع على المطية ليركب فوقه . إننا لا نُؤْثِرُ مَوْتَ ألفاظنا القديمة من غير تطور جديد لأن فى موتها نقصاً للغة وتهديماً ، وإنما نود أن يتبدل معنى الرَّحْل القديم إلى معان معاصرة ، فيطلق على مايلائم الركوب الحديث فى عصر الطيارات وغزو الفضاء .

وليست هموم اللغة العربية في عصرنا مقصورة على تطور ألفاظها وتيسير كتابتها وتسهيل نحوها وصرفها ، وإنما هناك عوائق تترصد هذه اللغة السمحة العريقة ، وإن من أكبر نكباتها شيوع اللغة العامية واللهجات المحلية فى ديار العرب على اختلاف معيشتها وحضارتها .

لا أنكر أن اللغة العامية أصبحت بعد ترادف العصور العربية قضية جاثمة لا يمكن إنكارها ، وتاريخ اللغات العامية فى دنيا العرب

كان مقرونا بانحدارها السياسي والحضاري . وحين اقول في عصرنا هذا كلمة « كده » التي تعيش في اللغة العامية بعصر عيشة قوّة وتعبير وبقاء ، أفكر كم من الزمن على كلمة « كذا » وهي اللفظة الفصيحة لها ؟ وما هي السنون التي عملت فيها حتى جعلتها في تلك الحالة من اللفظ المُبْدّل ؟ وإذا أخذت بدراسة اللهجات العربية المعاصرة : صعدت من ألفاظها عروقٌ لايمكن أن تحصى تدل على ينابيعها في اللفظ والمعنى اللغوى العريق ، فأعجبُ وأحزنُ لتدحرج هذه الألفاظ ، وكأنها حُصيات رميت من أعلى الجبل إلى الوادي وأخذ نهر الزمن يجرى عليها وينحتها حتى استدارت كل منها كالكرة لايستطيع المرء معرفة أصلها وشكلها الذى كانت عليه .

وإن في إشاعة اللغة العامية في عصرنا الحديث الذى بنينا فيه وحدتنا العربية بالدم والنار وخرجت فيه بلاد العرب من ظلمات الاستعمار إلى نور الحرية لأمراً مفرّقا ومشتّتاً لهذه الوحدة .

سألت أديبا قاصاً : —

— لم عدلت عن الكتابة بالعامية ، ولك فيها قصص مطبوعة ومعروفة ، إلى الكتابة باللغة العربية الفصحى ؟ فاطرق مبتسما وأجاب :

إن الوحدة العربية تقضى علينا بالتزام الفصحى .

وكان فى جوابه فصل الخطاب لكل جدلٍ يقوم فى الصراع بين العامية والفصحى .

وكم عجبت لبعض أدباء عصرنا وعلماء الكلام المحدثين أن أطالوا القول فى شئون اللغة العامية، وذهبوا فى تقريرها المذاهب يتطرفون فى مقالاتهم وبحوثهم ، ولم يعد اليوم من يتقبل آراءهم فى اللغة العربية وتفضيل العامية ، بعد أن قامت الوحدة العربية الكبرى تسعى إليها شعوب الضاد لتؤلف أمتها الموحدة .

بعد هذا كله لا بد من كلمة حكيمة حول لغة العصر فإن حضارة القرن العشرين التى ملأت أنوف العرب من عطور الغرب وطيوب الشرق تتجافى عن نفحات الشيح والقيصوم فى منابت البرارى والصحراء ، فلا بد إذن للغة العرب فى هذا العصر من تطور يلائم الحضارة ، ولذلك رأينا المجامع العلمية تقوم بوضع الألفاظ الجديدة لمصطلحات العلوم ، وقد نهض بهذا العبء أعلامٌ فى مصر والشام والعراق ولبنان فاغْنَوْا لغة العرب الحديثة بتلك المصطلحات العلمية ، وإن اللغة العربية نفسها قد ركّبت فيها طبيعة الاصطفاء الزمنى، فهى تُهمِلُ ألفاظاً خلا عنها التداولُ، وتحيي ألفاظاً وتعابير يقتضيها الزمن ، ولكن مجال الاقتضاء

والتداول لا ينبغي ان يترك مفتح الأبواب ، فلابد لتطور اللغة فى مدارج الاستعمال من كتاب وأدباء وشعراء بلغوا مراتب البيان السديد — فلهم أن يجدوا التطور الجديد في لغة العرب الحديثة دون إدخال الضيم على اللغة القديمة والسابقة فى عهود الكلام المبين .

ولا ينكر الباحث ما كان للصحافة من شأن فى تطور اللغة العربية ، إذ أن الأسلوب الصحفى يتوخى السهولة ويؤثر السرعة لقرائه، وهو إذا تجنبهم العسر فى كلام العرب ، فإنما يصنع جيلا ، غير أن عبقرية لغة العرب لا ترضى باليسر الكثير والسهولة الرديئة ، ولا بد للغة الصحافة فى عصرنا من العناية بقيم اللغة وفن آدائها ، وقد ظهرت تباشير الأمل فى أقلام شبان صحفيين محدثين أخذوا أنفسهم بالعبارة السليمة والأسلوب العربى القويم .

المقالة وتطورها فى الأدب المعاصر

لم يَرْقَ فى أدبنا فنٌّ كما رَقِيَ أدب المقالة ، وكانت المقالة العربية قديمة فى ولادتها ووجودها ؛ عرفها العرب فى العصر الأموى ، وأتقنها كتابهم فى العصور الأندلسية والعباسية ، ولا ننكر أن الأدب اليونانى والفكر اللاتينى قد عرفا المقالة فى عصور سابقة ، إذ كانت مقولات الفلاسفة الأغريقيين قائمة بالمقالة .

المقالة كتاب صغير ، وهى حقا كذلك لأنها ينبغى أن تحتوى على فكرة مختصرة فى صفحات محدودة ، كرأى يريد صاحبه عرضه على الناس ، ويشترط فى المقالة أن تهدف إلى غرض ، وأن تنتهى إليه ، مكتوبة بلغة سليمة وفكر منير ، إذ المقصود منها التقريب لا الإبعاد .

وقد عرف عصرنا الحديث المقالة منذ فاتحته ، إذ كانت هى استهلالته الموفقة ، وكان الكتاب الأوائل الذين أسسوا أدب العصر الحديث أصحاب مقالات أكثر مما كانوا أصحاب كتب ، على أن مقالاتهم قد ضُم بعضها إلى بعض حتى تألفت منها كتبهم الأولى ، وظهرت حاجة المعاصرين إلى المقالة بأكثر مما ظهرت حاجتهم فى مطالب الكتاب ، إذ كان عصرنا فى حضارته يود

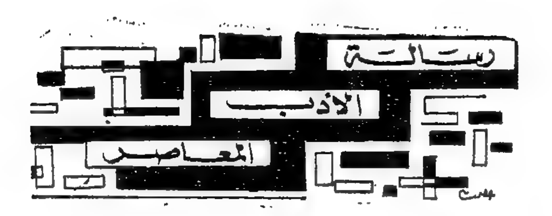
غذاء روحيا وعقليا كخبزه اليومي ، فوجد المقالة وسيلة إليه ، فنما هذا الفن في ظلال هذا العصر ، وبرزت المقالة في الصحف اليومية والأسبوعية والمجلات الشهرية ، إذ كان دابها ، في مظاهرها ، العناية بأدب المقالة ، فأنت حين تطالعك الصحيفة في الصباح والمساء ، وهو ما امتاز به عصرنا في حياة الفن الصحفي إنما تقرأ فيها المقالات في السياسة والاجتماع والأدب ، وقد تفردت المجلات أدبية كانت أم علمية بالمقالات في أشتات الموضوعات والأسباب ، وتباينت قيم المقالات فهي كالكتب في ارتفاع واستواء أو انخفاض.

وبدأت المقالة في مستهل عصرنا مشحونة بالصناعة اللفظية ، لتأثر كتابها بالنزعة اللفظية الغابرة التي كانت مسيطرة على أدب عصور الانحطاط حين غلبت على الأفكار والأقلام هذه الصناعة ، وبخاصة نظام السجع والمحسنات البديعية ، غير أن عصرنا بما عرف فيه من التخلي عن القيود الغابرة في الأدب والفن صار يتأبى على التكلف في التعبير ، ويتخلص من أثقال التزويق في المقالة . وبذلك أصبحت في العصر الحديث من أرقى فنون الأدب ، وكانت هي النموذج الجميل الذي يدل على قيمة النثر وروعة البيان الحديث.

وامتاز نفر من أدبائنا بهذا الضرب من الكتابة فنشرت لهم مجاميع مطبوعة هي عشر مقالاتهم في موضوعات شتى ، ويستطيع

مؤرخ الأدب ان يجد عند هؤلاء صور المقالات المعاصرة التي أفاد من قراءتها ألوف القراء في زمننا وتثقفوا بها ، وكانت لها رسالة عاش وراءها كاتبوها ، ومن أشهرهم : مصطفى صادق الرافعي الذي جمعت مقالاته وسميت (وحي القلم) ، وأحمد حسن الزيات وقد جمع مقالاته باسم (رسالة القلم) ، وأحمد أمين الذي سمى مجموع مقالاته (فيض الخاطر) في أجزاء أوفت على العشرة ، وطه حسين في أحاديثه ومقالاته التي ضمتها كتب كثيرة ، ومثله العقاد الذي أتقن المقال . وغير هؤلاء كتاب كثيرون ، جمعت مقالاتهم في كتب باسماء متفرقة ومختلفة .

وما تزال المقالة حتى يومنا هذا محتلة الصدارة في أدبنا المعاصر . تؤدى الغذاء الروحي لقرائها في الصباح والمساء على السواء ، وتحمل لهم أطرف الموضوعات والآراء ، لكن شأنها في الصحافة اليومية قد تغير وتطور ، فلم تبق فاتحة الجريدة مقالا لابد منه ، كما كانت في الربع الأول من هذا القرن لكاتب مشهور أو لرئيس التحرير ، فإن المقال الصحفي حل بديلا منه الريبورتاج والتعليق على الأخبار وما اشبه .



لا تستطيع أية أمة معاصرة ، وجدت سبيلا للرقى والنهضة ، أن تظل فى معزل عن التيارات الحضارية الحديثة فى العلم وفى حياة الفكر والأدب والفن . ولابد لكل أمة حديثة ، ذات وعى ، من أن تقتبس أقباساً من الحضارات المجاورة أو البعيدة ، وقد شاهدنا فى عصرنا هذا تمازج الثقافات واحتكاك الأفكار والآراء بين الأمم ، حتى لحقت الأمم المتخلفة بالسابقة لتدركها وتسايرها فى موكب التقدم والتطور .

وقد آن للعرب فى هذا العصر أن يوسعوا على أنفسهم فى أقباس غربية مفيدة للعلم والفكر والفن ، وبهذا الاحتكاك العلمي والأدبي تظهر أمتنا العربية الجديدة بالمظهر الأقوى فى حياتها الحديثة ومعيشتها التى تقام على أسس تعاونية اشتراكية .

وقد كان أدبنا القديم غُنْيَةَ عصوره وحديث معاهده .

وبلاده ، على الرغم من ضيق الوسائل الناشرة والمذيعة ، وكانَ لهـذا الأدب رسالة ضاحية فى أكثر تلك العصور ، ولا نستطيع ان ننكر أن أدبنا العربى القديم كان له من الطوابع الكبيرة الطابع الأرستوقراطى ، إذ كان أكابر الشعراء يعيشون فى أكناف الملوك والأمراء . وهذه الظاهرة لم تكن مقصورة على أدبنا العربى فحسب ، وإنما هى شاملة لكل آداب الأمم فى عهودها الفائتة واللاحقة . ولو أحصينا عدد الشعراء والكتاب الغربيين الذين عاشوا فى حمى ملوكهم وأمرائهم لعدنا بالحديث إلى زمن الشعراء « التروبادور » الذين كانوا ينشدون أشعارهم على قيثاراتهم أمام الملوك والأمراء وهم فى مِمْسَطِ الطعام وقيام المآدب والحفول ، ولم يكن هذا من شأن الشعراء العرب إلا قليلا منهم ، فإن النابغة الذبيانى فى الجاهلية كان يأكل مع ملوك الشام فى صحاف من الذهب والفضة، وكان أبو الطيب المتنبى يشترط على سيف الدولة ان ينشده الشعر قاعداً ، ولم يكن شوقى وهو آخر شاعر فى تاريخنا الأدبى الحديث لازم الملوك والأمراء منقصاً لقدر نفسه ، وإنما كان معتزاً بكرامته وفنه .

وكيف كان الأمر ، فإن أدبنا القديم كانت له صفات ارستقراطية ولكنها لم تكن شاملة ، وفى غفلة عن الحياة الخافقة ، وبمعزل

عن الشعب ، إن شعراءنا الأقدمين وادباءنا الغابرين لم يعرفوا الأبراج العاجية ، وإنما خفقوا فى الأسواق ، وامتزجوا بالشعب ، وعرفوا احزانه ، وتغنوا بفنونه، وهم إذا قَصَّر بعضهم آثاره على الملوك وأهل الحكم ، فإنما كان التقليد يدعو الشعراء إلى ذلك ، ليكسبوا خبزهم ، وليعيشوا فى رغد وهناءة عيش .

وكانت لأدبائنا القدامى والغابرين رسالات أخذوا أنفسهم بها . فابو تمام كانت رسالته الإشادة بأعمال العرب فى عصر أخذ الأتراك يستولون فيه على الحكم العباسى فى القيـادة والشورى . وكانت لأبى الطيب المتنبي رسالة دعم فيها قضية العُروبة فقدأخذ نفسه بجمع كلمةالعرب منأقطارها وبيته المشهور شاهد على رسالته :

وإنما الناس بالملوك وما تُفْلِح عُرْبٌ ملوكها عَجَمُ

وكان يصف فرحة النساء بالعُروبة ومواكبها ، حين قال فى وصفهن بالمهرجانات التي كانت على عهده :

ينادين بين خِصاص البيوت لا يَقْطَعُ اللهُ أصْلَ العَرَبْ

وهكذا تجد أدباء وشعراء غابرين لهم رسالة فى الأدب ، وكان أبو العلاء المعرى أكبرهم حملاً لهذه الرسالة التى عرف بها فى الأخلاق والفلسفة والتامل .

وقد طلع علينا هذا العصر الذى ثارت فيه الشعوب العربية على الاستعمار والمستعمرين، واخذوا بمثل عليا، ونظم قومية وإنسانية تكاد العصور السابقة لاتعرفها ، من هذه المعاني التي عمت عصرنا « الروح الشعبية » « والديموقراطية والاشتراكية في الحياة والفكر » فلم يعد الأديب مستطيعاً أن يعيش فى معزل عن شعبه لأن الشعب هو صوت الأدب وصداه ، وقد عمت هذه الفكرة أوساط الأمم ، فأصبحت الآداب التى لا تكتب لأجل الشعب آدابا مقضياً عليها بالخمول والإهمال ، وقد أظلنا عصر قضى على الأدب الأرستقراطي حين قضي على الأرستقراطية نفسها ، وقلل من عدد الملوك وخفض من سطوة الأمراء ، وصارت نبعة الأدب من غمار الشعب وحياته وطبائعه .

وقد ظهرت عقدٌ وعقبات فى حياة الفنون والآداب ، وفى نصوص اللغة ذاتها ، من جرّاء إساغة الأدب والفن للشعب ؛ فحسب ناس أن ذلك داعٍ للانخفاض باللغة وأساليبها القديمة لكى يفهمها الشعب . وهذا الظن باطل لأن الشعوب فى عصرنا هذا ليست جاهلة أو خاملة ، وإنما جاء تعميم العلم والثقافة خالقاً فى الأمم المتحضرة شعوبا واعية راقية ، وما أجد المرجوّ من ادب الشعب تهوينَ هذا الأدب وتمويهَهُ لكى يفهمه الشعب

أو هو صوغ أدب شعبي خاص بالشعب . كل ذلك ذهاب خاطىء في فهم المذهب الديموقراطي وضلالٌ في تفسير مراميه ، وإنما المراد بالأدب الشعبي هو أن يمثل الشاعر والكاتب والأديب شعبه في أدبه فيعكس حياة هذا الشعب في خيره وضره وفي عافيته وبلائه في معارض الصور الفنية والوصفية لذلك الأدب والفن .

وتلك هي رسالة الأدب المعاصر ، أن يندمج الأديب بشعبه ليكون منه وليصدر عنه وليؤول إليه ، وليست رسالة الأديب المعاصر مقصورة على تقديم نماذج من أدبه لشعبه وإنما هي في ان يكون الأديب نفسه خلاقا ومصلحاً ومكافحا عن روح الشعب وتاريخ الأمة وتراثها ، وأن يكون شعاره الكفاح ؛ فإن القلم مكافح منذ كان ، ورب كفاح به ، بذَّ السلاح .

ولئن سادت الفردية بعض المظاهر الأدبية القديمة ، فإن الجماعة كانت ذات شأن في الأدب العربي القديم وبخاصة في حياة الجاهلية وما بعدها ، حين كانت الكلمة القبيلية هي المسموعة ، وهي التي تفرض سلطانها وحرمتها ، وقد عبر شاعر قديم عن النزعة الجماعية للأمة العربية ، حين قال بلسان شعره :

وهل أنا إلا من « غَزِيَّةَ » إنْ غوتْ
غَوِيْتُ وإنْ تَرْشُدْ « غَزِيَّةُ » أَرْشُدِ

وكان الشاعر يعبر عن روح الفرد الذى ينضوى تحت الجماعة ، وفي انضوائه حماية لها من النوازل ، وقد عبر شاعر قديم من « بنى العنبر » عن هذه الفكرة حين وجد نفسه فريداً متعرضاً للعدوان ، وأنه لو كان من قبيلة « مازن » لما استباح أحد حماه من قبيلة ثانية هى (ذهل بن شيبان) فكان يقول :

لو كنتُ من مازنٍ لم تَسْتَبِحْ إبِلي

بَنُو اللَقيطَةِ مِنْ ذُهْلِ بنِ شَيْبانا

ومن رسالة الأدب المعاصر : دراسة الفكرة الإنسانية وإبرازها فى آثار الأدب . والفكرة الإنسانية هى الغوص على معانى الحياة البشرية فى مواجعها وسعادتها ، كما غاص فيها الكاتب (ألبيركامو) في كتابه عن أسطورة « سيسيف » وتلك أسطورة وجدها الكاتب المعاصر على قدمها تمثل سيرة الإنسان فى الحياة على الأرض ، لقد كان « سيسيف » الأسطورى محكوماً عليه بأن يحمل صخرة كبيرة إلى راس الجبل ، وكان كلما بذل الجهود فى حملها وإيصالها إلى القمة انفلتت منه وتدحرجت إلى الهاوية ، فكان عليه أن يعود ادراجه فى حملها من الوهاد إلى النجاد ، وقد شبه « كامو » حياة الإنسان

الـكادح باسطورة سيسيف الإغريقية القديمة ، بعد أن أدخل عليها فلسفته الخاصة في حياة الإنسان .

إن دراسة المشكلات العامة للإنسانية هي من دراسات الأدب الحديث التي أصبح الإنسان يراها قبلته ونموذجه المحتذى في فنه الخالد . ودراسة مشكلات الأمة مما يطالبُ به الأديبُ الحديث ، وما قصدت إلى دراسة المشكلات من الوجهات العلمية لإدراك العلل والاهتداء إلى النتائج في الاقتصاد والاجتماع . وإنما اتبعت الدراسة الفنيه للمشكلات التي تتناول الأخلاق في الفداء والحرية وفي عظمة الأمة وبقائها ، وفي مواطن حماستها وبناء حياتها .

وما كنت أجد الأديب الشاعر الـكاتب شخصا عاديا ، وإنما هو واحد بأمة ، وكانت تقول العرب « رجل بأمة » والأديب مسئول من أمته، وهو إذا عرف رسالته منهـا كان لها مصباحاً وصوتاً اجتماعياً .

ومن رسالة الأدب المعاصر : أن يعرف الشعب حقيقة أدبائه خاصة كما يعرف المرء أخاه واهله ، وكأيّ من أديبٍ أو شاعر يعيش في عصرنا وكأنه في نطاق ضيق من السدود والحدود ، تسيطر عليه الفـكرة الاعتزالية والناسوتية المفردة ، لا يعرف عنه قراؤه شيئاً سوى آثاره الفـكرية والأدبية ، فهو لم يـكتب لقرائه تاريخ حياته كما هي ، إنه لم يعطهم نفسه كما أعطوه أنفسهم ،

إنه لا يعاملهم معاملة الندّ للندّ ، ولم يكن هذا شان الأدب الغربى المعاصر ، فإن أدباءه وقفوا ضاحين شفافة أرواحهم ، يعرف عنهم قراؤهم كل شىء ، ومن مثال واحد من حياة الأدب الحديث فى الغرب تستدل على بلوغ الرسالة الأدبية لدى أصحابها المحدثين ، فإن (آندره جيد) حين كتب قصة حياته أعطى قراءه كل شىء . وقد عنى بالمذكرات المكتوبة بعض أدبائنا المعاصرين فكتبوا تاريخ حياتهم ، وقدموه لقرائهم — وكان طه حسين فى كتابه « الأيام » يسير فى طليعة الكتاب المعاصرين الذين عرفوا هذا الفن ، وقد كتب « محمد كرد على » مذكراته ، وكتب « أحمد أمين» سيرة عمره بكتابه « حياتي » وهذه الآثار من أجلّ المظاهر الأدبية الصحيحة التي على الأديب المعاصر القيام بها ، ليستدل منها الباحث على حقيقة هؤلاء الموهوبين من المفكرين والأدباء .

وبعدُ ، فإن جملة القول فى رسالة الأدب أن يكون هادفا يرمى به صاحبه صوبَ غاية يسعى إليها ليَبْلُغَها ، فالأديب الضالّ ، والكاتب الحائر فى مهب الرياح ، لا يستطيع أن يَنْعَم بطيب الحرية ، ولا تكون له شخصية مُمَيَّزة ، وهدَف معروف يرمى إليه .

ومن ألوان النَّزَعات المعاصرة فى أدبنا الحديث فكرة

الالتزام ، وليست من رسالة الأدب فى شيء ، لأن الالتزام تَزمُّتٌ وتقييدٌ ، وربما كان فى أمرٍ مكروهٍ ، أو مشبوهٍ أو فى شأنٍ لا جدوى عنده ، ولا يَحْمِلُ إلى حياة الشعب نفعاً ، وقد يكون به الضرُّ لهذا الشعب . وقد جعلت فكرة الالتزام تجرى على أقلام فتيةٍ من كتاب الشباب فى عصرنا لتعدو بهم عن الطريق السوىّ فى الأدب ورسالته ، فإذا صح الالتزام فى حياة الفلسفة ، كان يكون لفيلسوف دأب فى فكرة واحدة ، فإنه لا يصح في نطاق الأدب الذى بُنى على الحرية والانطلاق ، والأدب الصحيح الذى يُخَلِّدُ أصحابه يشبه الطائر الغِرِّيد المطلق الذى أسلم جناحيه للتحليق الحر ، ولم يكن ملتزماً الحبس فى قفص ، ولو كان من الذهب .

وينبغي هنا التفريق بين الأدب الهادف والأدب الملتزم ، فالهادف ذو غاية سامية تنبع من مطلب رفيع يؤول إلى نفع وإصلاح، وأما الالتزام فهو تعنُّتٌ مجرَّدٌ يقوم فى أثرِ الأديب وحده ولو كان تعسفياً .

وتستقر رسالة الأدب المعاصر فى أجلّ حقائقها وأنقى مظاهرها عند الأدباء القصاصين ، فإن هؤلاء وحدهم يستطيعون أن يفيدوا برسالتهم الأدبية الحديثة .



إن منهج البحث فى الأدب الحديث يدعونى إلى أن اقول باقتراح جديد ، فمنهاج الدراسة الأدبية يقدم العصور القديمة على الحديثة ، وقد درجت المناهج المدرسية على هذه السبيل ، فإن الطلاب عند اول احتكاك فكرى لهم بالأدب يكون موضوع درسهم الأدبَ الجاهلى وأدبَ صدر الإسلام ، وفى الصف الثانى من مرحلة الدراسة الثانوية يكون موضوعُ ادبهم العصرَ العباسى ثم الأندلسي ، وفى الصف الثالث الذى ينتهون به من الدراسة الثانوية يكون منهاجهم فى الأدب الحديث .

على انى لا أجد هذا التقسيم التقليدى منطقيًّا — بالرغم من السير عليه فى مدارس الجمهورية ، لأن العصر الجاهلي وهو أصعب العصور دراسةَ ادبٍ لاينبغى أن يُرْصَدَ للطلاب البادئين فى دراسة الأدب العربىّ ، وإنما ينبغى لهم أن يبداوا

بدراسة الأدب الحديث، لقرب مآتيه منهم، ولأنهم يعايشونه ويرون نصوصه بين أيديهم ، وقد عرفوا بعض شخوصه من الكتاب والشعراء و أساغوا أساليبهم وأدبهم .

فإذا تمكن الطلاب في الفصول الثانوية الأولى من معرفة الأدب الحديث السهل فى عباراته والواضح فى أفكاره ، اندفعوا بعد ذلك إلى دراسة العصور العباسية فالأندلسية فى تاريخ أدبنا العربي ، ثم عَلَـوْا بعد ذلك إلى العصر الأموى ، وكان ختام دراستهم فى السنة الأخيرة معرفتهم للأدب الجاهلى ، وهو العسير فى نصه ومقاييس تعبيره وصور حياته وخصائصه .

ولن يتقن طلاب البلاد العربية معرفةَ الأدب العربى إلا إذا اخذ أولو الأمر بهذا الرأى الذى أراه فى تغيير الدراسة الأدبية ، وجعلها حسب القيمة المنطقية ، لا حسب العصور الأدبية المترادفة فى تسلسلها الزمنى .

لقد ألف فى الأدب العربي الحديث طائفة من الأدباء والنقاد وكان من أقدمهم وأسبقهم « أنيس المقدسي » الذى درس الاتجاهات الحديثة فى أدبنا المعاصر بجزءين، وقد كان لكتابيه إشعاع جديدة فى تاريخ هذا الأدب ، إذ قد بدأ فى إلقاء النور على منابع الحركة الأدبية والفكرية منذ أواخر العصر الماضي

وقد أرّخ الثورة الفكرية التي ظهرت في دنيا العروبة أواخر العهد العثماني .

وفي حياة الأدب الحديث في عهد شوقي وحافظ كتب طه حسين عن شعر شوقي وحافظ كتابيه « من حديث الشعر والنثر » و « من أدبنا المعاصر » وكان في كتابه هذا قَصْدُهُ الخاص بتجديد الشعر، وهو خلاصة الوضع الأدبي الحديث لحركة الشعر والتحفّز الجديد لإدخال التطور عليه .

وكانت دراسات طه حسين تجد في روحها الفني العناية بالأدب الحديث الذي كان لطه حسين نفسه فضل السبق إلى إرساء أسسه في الدراسات الجديدة التي تؤْثِرُ الحرية في الرأي والتفكير .

كما نجد الأديب عمر الدسوقي قد أخرج للناس كتابين «في الأدب الحديث» جمع فيهما تاريخ الحركات الأدبية والفكرية منذ منشئها حتى أيامه ، ويميز دراسته من غيرها الوضوح والتنسيق والفهم العميق للأدب المعاصر .

وتبرز في فصوله صورة الوعي القوي المتوثبة والعروبة ، إذ كان هذا الأديب من أوائل الذين بشروا بالقومية العربية في ربوع النيل .

وكان شوقي ضيف من ابرز الدراسين للأدب الحديث

في « مصر » و « اتجاهات الشعر المعاصر » قد احتوى كل منهما على دراسة مكينة للوجوه الأدبية الحديثة ، كما عنى بتطور الشعر ومذاهبه وتطور النثر وفنونه وحلـل آثار أعلام الشعراء والكتاب المعاصرين .

ووقف « محمد مندور » أكثر مؤلفاته على دراسة الأدب الحديث والنقد والمسرح .

كما كان للأديبين مصطفى السحرتي ومحمد عبد الغنى حسن وغيرهما عناية بارزة فى دراسة الحركات الأدبية الحديثة ونقد الآثار الفكرية والفنية فى العالم العربى .

وفى لبنان أصدر مارون عبود كتبا عديدة فى دراسة الأدباء المحدثين وتحليل آثارهم ونقدها ، وكان له فضل في إبراز الأدباء العرب ضمن إطاره الفنى الخاص ، حين تكلم على فرح أنطون وجبران والشدياق وأمين نخلة وعبد الله العلايلى وعمر الفاخورى والياس أبى شبكة .

وثمة أدباء جاهدون وأديبات دائبات عنوا بالأدب العربى الحديث فى مصر والشام ولبنان وفى العراق والمغرب ولهم آثار بينات تدل دلالة موفورة ، على أن الأدب العربي المعاصر أصبح ظاهرة فكرية بارزة فى حياة العرب الذين يتنادون إلى أدب

أصيل متطور يمثل نضالهم وثورتهم على الاستعمار وطموحهم إلى حياة أرقى ومستقبل أفضل .

ولقد أصبح للأدب الحديث عناية بالغة فى جامعات الجمهورية العربية المتحدة ، وينبغى أن تكون كراسى الأساتذة المختصة بدراسته محققة لما أسست من أجله ، فإن رعاية كليات الآداب للآداب الحديثة واجب قومى تقتضيه نهضتنا الشاملة التى تبنى معالمها وتخط قواعدها دراساتنا الجامعية والموضوعية .

كما أن مؤتمرات الأدب التى شهدتها البلاد العربية منذ بضع سنوات لتدارس القضايا الفكرية والقومية كان لها أثر فى أدبنا المعاصر ، وإذا لم يبد هذا الأثر واضحاً فإنه تجلى فى تعارف الأدباء على صعيد واحد وفى لقاء بعضهم لبعض ، بعد أن كانوا يتوقون إلى هذا اللقاء من قريب ومن بعيد .

وقد كانت رسالة الأدب المعاصر الموضوع الأول فى أكثر المؤتمرات التى عقدت فى لبنان وسورية ومصر والكويت ، ولا تزال تدور حولها الآراء والمطارحات .

أما المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية فإنه يولى هذه الرسالة عنايته الكبرى، ويعمل على تعزيز الفكر العربى والقومية العربية وتشجيع المعنيين بشئون الأدب وآثاره

وذلك برصد الجوائز النقدية والتشجيعية للموهوبين والمفكرين الممتازين ، وتيسير الأسباب للناشئين من الأدباء في نشر كتبهم ومساعدتهم جهد الطاقة .

* * *

النقد .. والدراسات الأدبية الحديثة

النار تروّق السبائك بعد أن تصهرها ، وكذلك النقد يروّق الأدب ويبين حقائق الآثار فيه ، وقد عاش الأدب العربي فى كل مراحله وعصوره وعليه ديدبان النقد يسدد خطاه ويراقبه فى المنهج المستقيم .

وكان من الطبيعى في حياة الأدب بعصرنا أن ينهض النقد للتنقير فى الأدب ولبحث قضاياه وآثاره وتمحيصها ، ولعل أقدم حركات النقد في العصر الحديث ما جاء فى آثار الكاتب أحمد فارس الشدياق الذى كان أول من فرّق بين مزايا الشعر العربى، والشعر الغربي ، وماذكره سليمان البستانى سنة ١٩٠٤ في مقدمة الألياذة لهوميروس التي ترجمها إلى الشعر العربى فإنه أبان أحكام

النقد وجدوه فى الأدب ، ثم كان الناقدان السابقان عباس العقاد وإبراهيم المازنى حين أصدرا منشورة (الديوان) فى جزءين صغيرين طلعا فيهما بنقد تناولا به يومئذ شـوقى وحافظ والمنفلوطي وغيرهم ، وكان هذا النقد جديدا قاسيا ، وكيفما جاء أمر تعليل الدوافع إليه فقد أخذا بأسلوب حادّ فى ذلك النقد العنيف ، فهدما بأسطر ما قام بكتب وصحف وشقا طريقهما الأدبية بتلك المعاول منـذ ذلك اليوم ثم مارس صناعة النقد الدكتور طه حسين فى بعض كتبه وتناول الأدب الحديث في آثار الشعر والنثر بمقدمة كتابه « فى الأدب الجاهلى » وفيها ظهر له من الآثار المتوسطة فى عهدها والأخيرة ، وهو فى نقده هادئ مطمئن غير هدام بعنف ، ولقد يهدم وهو يبتسم أو يضرب ثم يواسى ، وكانت ديار الشام منذ ثلاثين عاما قد أطلعتْ أحمد شاكر الكرمي فظهرت بوادر نقده المنهجى العنيف في جريدة (الميزان) الدمشقية مدة عامين ثم أدركته الوفاة وأدركت بعده الميزان ، وكان ميخائيل نعيمة سباقاً إلى النقد الحديث فأصدر كتابه (الغربال) وفيه نقد منهجي من الطراز العلمى الجديد .

وقد عاش الأدب العربى فى مصر والشام وسائر البلاد العربية مستنيراً بالنقد فى ظلمات دروبه حتى خبت تلك الأشعة

الروحية التى كانت تدب الحياة فيه ، وقعد عن النقد العقاد ، ومال طه حسين إلى التعريف بالآثار ، وقراء الأدب الحديث فى العالم العربى يؤثرون دوام تلك الأشعة من طه حسين والعقاد ليعود لدرب الأدب توهج سبيله ووضوحه لدى السالكين ، على أن الدراسات الأدبية قد تألقت فى ظلال الجامعات وكليات الآداب خاصة ، ومعاهد اللغة العربية وآدابها فى مصر والشام وفى العراق ولبنان والمغرب العربى ، فصدرت دراسات لآثار الشعراء الغابرين والكتاب المعاصرين والمدارس الأدبية والنزعات الفكرية والتيارات القومية العربية فى مجال الوثبة والثورة ، وكل ما صح أن يشكل أدباً معاصراً فى نطاق الفكر والفن . وقد نهض بالدراسات الأدبية القيمة طه حسين والعقاد وأحمد أمين ، ثم شوقي ضيف ومحمد مندور ، وظهرت لهم كتب مأثورة فيها ، وقام فى المدة المتأخرة جماعة من كهول الأدب وشبانه بدراسات أدبية ، حتى كانت هذه الدراسات أحد مظاهر الحياة الأدبية فى عصرنا ، وأسهمت الصحافة العربية والمجلات فى نشر جانب كبير من هذه الآثار الحديثة .

أدب المستقبل

يقول علماء المنطق : إذا عرفنا المقدمات أدركنا النتائج ، وإنى فى دليل هذا القول أرى مستقبل الأدب العربى فى مطلع النصف الثاني من القرن العشرين ، فإن تمازج الثقافة العربية بالثقافات الغربية واطلاع المحدثين من العرب على الآداب الأوروبية ومعرفتهم لغاتها أصبح امرأ مساعفاً من أجل نهضة أدبية واسعة تقوم على أسس المعرفة والحرية ، وتتفهم حقائق الحياة ، وحضارة العصر ، فيرتكز عليها المجتمع الجديد الذى ترفده النهضة الأدبية مهما يكن هذا المجتمع صناعياً أو علمياً .

ونحن إذا تساءلنا بحق وصدق ، وبتجرد موضوعى هذا السؤال :

— هل كل هذا الذى تحدثنا عنه يؤلف لنا ادبا عربيا حديثا يضم معانى الجدة وأوصافها ، ويشف عن العالمية في الفكر والإنتاج الأدبى ؟

إن الجواب يقف فى أفواهنا وقوف اللقمة عند الغصة ، أو نقع فى حيرة واضطراب ، فماذا نقول ؟ بالرغم من نبوغ أفذاذ نهضوا بالأدب العربى الحديث بانين ورائدين ، فيهم من الأدباء

والشعراء والكتاب مَنْ يضاهون ـ على قلتهم ـ أمثالهم من علماء الآداب الغربية الحديثة ، نجيب :

ـــ إن الحقيقة التى هى بُغْيَة كلّ باحث تقول : ليس ما لدينا من آثار أدبائنا شيوخًا ومحدثين إلا القليل الضئيل مما نستطيع أن نضعه إلى جنب الأدب العالمى . ولا بد أن نتساءل : هل فى أدبنا الحديث فى الشعر والنثر روائع وبدائع ، كالتى جاء بها « بول فاليرى » و « آندريه جيد » ؟ .

وهل فى قصصنا ما يضاهى قصص « سومرست موم » و « برناردشو » ؟ .

وهل فى مسرحياتنا ما يماثل آثار « ساشا كينزى » و « كوكتو » و « وكْرُواسّى » و « سارتر » وأندادهم ؟ .

إن أدبنا الحديث ـ كما أرى قد يكون مقدّمة للأدب العربى المنشود فى المستقبل القريب ، وسيزهو هذا الأدب بحداثته حين يوازى الآداب الغرْبية المعاصرة ، ويومئذ يصح أن نكاثر به آداب الأمم ، وأن يرقى بآثاره القيمة إلى مكانة الآداب العالمية ، ولن يكون لنا أدب حديث مرموق حتى تبدو على الفكر العربى طبائع التحول المعاصر التى تتصف بها أفكار الأمم المعاصرة المتقبّلة لسنة التطور فى غير مساس بالقيم الوطنية والمثل الأخلاقية التى نعدّها أجل ما تتصف به العروبة الخالدة .

لقد كان لنا أدب عالمي في العصر العباسي والأندلسي وكان لدينا أفذاذ فيه عالميون ، وحين نذكر الجاحظ وأبا الطيب المتنبي وأبا العلاء المعرى نعتز بهم فى كل عصر . ولا بد لأدباء المستقبل من أن يكونوا مزودين بمعرفة عميقة فى لغة العرب ، كأدباء اليوم من الشيوخ وبعض الكهول ، وقد يتكامل ادبنا الحديث العتيد في العناية بقصصنا الشعبي المعاصر ، ولا بد له من دراسة علمية ، وجمع من مصادره فى القرى والمدن مع روافد الغناء الوطنى والأناشيد الشعبية ، ثم يروق كل ذلك ويصير فى وضع نموذجى لما يماثله فى آداب الأمم الحديثة .

ولكى يكون لنا هذا الأدب الذى نبنيه اليوم ، لا بد للأدباء من إتقان منتوجهم ومعرفة الثقافة الغربية والأدب المقارن ، كما ينبغى أن يقرؤا تاريخ الفنون ، ويتمرسوا بالأساليب العربية القديمة كتابا وشعراء وقصاصين ودارسين للأدب ومتفرغين للنقد والبحث ، يملكون إلى كل ذلك مواهب فنية وإخلاصا لقضية الأدب ومطالب الحياة ، لا تغريهم شهرة عابرة ولا كسب عاجل ، بل يحسون أنهم من لحم الأمة العربية ودمها ، وانهم لم يخلقوا إلا ليكونوا لسانها الصادق وفنها الأصيل وفكرها المتطور ، حاملين رسالة أدب منطلق من العروبة ، متسم بروح الشرق ، ممثل للنهضة الحديثة أحسن تمثيل .

المكتبة الثقافية

- أول مجموعة من نوعها تحقق اشــتراكية الثقافة .
- تيسر لكل قارىء أن يقيم فى بيته مكتبــة جامعة تحوى جميع ألوان المعــرفة بأقلام أساتذة متخصصين وبقرشين لكل كتاب .
- تصدر مرتين كل شهر .فىأوله وفىمنتصفه

الكتاب القادم

النيل الخالد

الدكتور محمد محمود الصياد

١٥ يناير ١٩٦٢

دار القلم بالقاهرة

الثمن ٢ ص